

النور والضياء
فى
تفسير سورة الأنبياء

الأستاذ الدكتور
إبراهيم توفيق الديب
كلية أصول الدين والدعوة
بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده، وعلي آله وصحبه ومن إهتدي بهديه، وسار علي نهجه الي يوم الدين.

أما بعد: فإن القرآن الكريم مورد الإسلام الصافي، ومنهله العذب الشافي، ودستوره العظيم، وأساسه القويم، من إبتغي الهدي في غيره أضله الله، ومن إعتصم به أعزه الله وهداه الي صراطه المستقيم، وهو الكتاب الخالد العالمي المحكم، المصدق لما بين يديه من الكتب والمهيمن عليها، والمعجزة الكبري التي تضم بين ثناياها معجزات شتي لرسول الله صلي الله عليه وسلم، وهو النور المبين، المنزل علي خير المرسلين، رحمة للعالمين، والمبدد لظلمات الجهالات الإنسانية، والقاشع لسحب الضلالات والغوايات الشيطانية.

وقد أيقن المسلمون الأوائل وأسلافنا الأماثل هذه المعاني- وغيرها كثير- وأدركوا أنه ذكرهم وعزهم وشرفهم، ولا قوام لهم ولا نهضة ولا سعادة إلا بهذا الكتاب والعمل به، فطبقوه خير تطبيق، وحفظوه وصانوه، وحافظوا عليه بالمهج والأرواح، وبذلوا في سبيل ذلك النفس والنفيس، والغالي والرخيص، فسموا به وقادوا البشرية جمعاء الي الخير والبر، وسادوا الدنيا وعلموا العالم.

وليت الخلف يحذون حذو السلف، ويدركون ما أدركوا، ويطبقون مثل ماطبقوا، حتي يعزوا وتكون الشوكة لهم، وتعود اليهم أمجادهم ويكونوا كأسلافهم وأجدادهم، فتركع لهم الدنيا راغمة ويحققوا أنهم خير أمة أخرجت للناس.

لذا كثرت المؤلفات عن القرأن المجيد، وتعددت ميادين البحث فيه، ومن أبرز الميادين وأظهرها وفي صدارتها ميدان التفسير، وهو أشرف الميادين وأعظمها، وأسماها وأفخمها، ومن ثم كثرت المصنفات فيه حتي فاقت الحصر.فمن العلماء من فسر القرآن كله، ومنهم من فسر سورا منه، ومنهم من فسر آيات منه، ومنهم من سلك مسلك التفسير بالمأثور، ومنهم من سلك مسلك التفسير بالمعقول، ومنهم من جمع بين المسلكين، وسار علي الدربين، وحاز الشرفين، كل يحاول قدر جهده، خدمة كتاب ربه مبتغيا الأجر منه ونيل رضاه وإفادة المسلمين.

وإني أحببت أن أسهم في خدمة كتاب الله، وأحظي برضاه، فكتبت تفسيرا لسورة عظيمة مباركة- وكل سور القرأن وآياته عظيمة مباركة- هي سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسميته : النور والضياء في تفسير سورة الأنبياء»، راجيا من الله تعالي وضارعا اليه ضراعة المضطر أن يتقبله مني قبولا حسنا، ويجعله هو وغيره من الكتب التي كتبتها من قبل في ميزان حسناتي، ويزيدني فهما لكتابه، وفقها في دينه، ويثبت قلبي وقلوب سائر المسلمين علي دينه، ويزيدنا هدي وإيمانا وأعمالا صالحة، ويغفر لنا زلاتنا، ويقيل عثراتنا، ويسدد خطانا، ويهدينا لما فيه رضاه، ويختم لنا بالإيمان الكامل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو القريب المجيب.

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم».

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم».

وصلي الله وسلم علي سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيهم بإحسان الي يوم الدين.

مقدمة بين يدي تفسير السورة الكريمة

« السورة » لغة: مأخوذة من« سور البلد » لارتفاع قدرها وعلو شأنها كارتفاعه وعلوه، ولإحاطتها بجملة آيات كإحاطته ببيوت في داخله. وقيل في مأخذها غير ذلك.

وتنطق بالهمزة فيقال« السؤرة » وهو قليل، ولغة فيها، وتنطق بدون الهمزة فيقال« السورة » وهو كثير، وذلك بإبدال الهمزة حرف مد وهو الواو لتناسب الضمة، وقيل غير ذلك.

وفي الاصطلاح: طائفة من الآيات، أقلها ثلاث، ذات بدء وختام معروف، وذات اسم توقيفي.

وعدد آيات هذه السورة الكريمة ١١٢ إثنتا عشرة ومائة آية في عد أهل الكوفة، و١١١ إحدي عشرة ومائة آية في عد غيرهم وهم أهل المدينة ومكة والشام والبصرة، وسبب الخلاف في العدد أن من قالوا إنها ١١٢ آية جعلوا قوله تعالي: « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» رقم ٦٧ آية مستقلة. ومن قالوا إنها ١١١ آية جعلوه مكملا للآية التي قبله باعتبار أنه مقول قول إبراهيم عليه السلام.

أما من قال- وهو الإمام النيسابوري- إن عدد آيات هذه السورة ١١٦ ست عشرة ومائة آية فهو مخالف للجمهور وقوله غير مشهور، ولعله خطأ مطبعي أو سهو علمي.

وعدد كلمات هذه السورة ١١٦٨ ثمان وستون ومائة وألف كلمة،

وقيل ١١٧٨ ثمان وسبعون ومائة وألف كلمة.

وعدد حروف هذه السورة ٤٨٩٠ تسعون وثمانمائة وأربعة آلاف حرف[١].

والسبب في اختلاف العادين لآيات وكلمات وحروف بعض السور القرآنية راجع الي تنوع القراءات وتعدد وجوهها المنزلة من عند الله تعالي، ووجود البسملة في أوائل السور القرآنية عدا سورة التوبة[٢]، ووجود الأحرف الهجائية الأربعة عشر حرفا[٣] التي بديء بها تسع وعشرون سورة، ووجود آيات لها إرتباط وثيق وقوي بما قبلها لفظا ومعني، ونظرة بعضهم في العد الي النطق بأحرف الكلمة ونظرة البعض الآخر إلي رسمها في المصحف، وغير ذلك من الأسباب المؤدية إلي اختلافهم في العد.

والخلاف في عد آيات بعض السور أو عد كلماتها أو حروفها، أو عد آيات القرآن الكريم وكلماته وحروفه لايترتب عليه زيادة علي القرآن أو نقص منه لأن حجم السورة وكمها وحجم القرآن وكمه هو هو بالإجماع، وإنما يدل ذلك المسلك من أسلافنا الأفاضل وعلمائنا الفطاحل علي مدي اهتمامهم بالقرآن ورعايتهم وصيانتهم وحراستهم له واشتغالهم بقراءته ومدارسته ومداومة النظر فيه ليل نهار وحرصهم علي نيل الأجر العظيم

---

(١) انظر لباب التأويل للخازن ج٤/٢٨٨ وغرائب القرآن للنيسابوري ج١٧/٣

(٢) بعض العلماء عد البسملة آية من كل سورة، وبعضهم عدها آية من سورة الفاتحة وحدها، وبعضهم عدها آية واحدة فذة منفردة.

(٣) هي أربعة عشر حرفا بحذف المكرر منها..

والثواب الكريم من الله البر الرحيم، و« لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[1] .

قال صلي الله عليه وسلم فيما رواه عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول« الم » حرف، ولكن ألف حرف رلام حرف وميم حرف.[2]

وتسمي هذه السورة بسورة الأنبياء عليهم السلام، ولم يرد لها اسم آخر توقيفي أو إجتهادي، ومعلوم أن الأسماء المشهورة للسور القرآنية توقيفية أي من الله تعالي، وأن في كل سورة من الألفاظ والمعاني مايتطابق مع اسمها ويوائم عنوانها،

وذكر الله في هذه السورة أسماء ستة عشر نبيا ثم تكلم عن مريم وإبنها عيسي عليه السلام من أول قوله تعالي:« ولقد آتينا موسي وهرون الفرقان.... » إلي قوله تعالي:« .... وجعلناها وابنها آية للعالمين»[3].

ورقمها في ترتيب السور في المصحف ٢١ واحد وعشرون، ونزلت بعد سورة إبراهيم عليه السلام، ونزلت بعدها سورة المؤمنون.

(١) سورة الصافات ٦١ وسورة المطففين ٢٦.

(٢) رواه الإمام الترمذي وغيره من أهل الحديث انظر أبواب فضائل القرآن باب ماجاء في من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ج ٤ ص٢٤٨ سنن الترمذي ومما قاله الترمذي عنه: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) سورة الأنبياء من رقم ٤٨ الي رقم ٩١ وذكر الله في سورة الأنعام أسماء ثمانية عشر نبيا وذلك من أول قوله تعالي: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم.... الي قوله : ... وكلا فضلنا علي العالمين» من رقم ٨٣ الي رقم ٨٦.

ومن المعلوم أن تقسيم القرآن الي سور وتقسيم السور الي آيات وترتيب الآيات أمر توقيفي أي من الله تعالي لا دخل لأحد من الخلق فيه وهذا بالإجماع المستند الي صحيح الأدلة، أما ترتيب السور ففيه خلاف بين العلماء والراجح أنه توقيفي كذلك.

وهذه السورة مكية كلها أي نزلت قبل هجرة رسول الله صلي الله عليه وسلم الي المدينة المنورة، وحكي الإمامان ابن عطية والقرطبي وغيرهما الإجماع علي ذلك، لكن الإمام السيوطي في كتابه الإتقان نقل مكيتها إلا قوله تعالي « أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها... » الآية(١)، وسيظهر لك أن الآية المذكورة مكية كغيرها من آيات السورة أثناء تعرضنا لتفسيرها إن شاء الله. ومما يؤيد مكيتها نزولها بعد سورة إبراهيم عليه السلام وقبل سورة المؤمنون وهما مكيتان، وذكر قصص بعض الأنبياء فيها، واهتمامها بابراز أصول الدين وأسس العقيدة وترسيخها وتعميقها في القلوب، وقصر آياتها، وجزالة ألفاظها، وقوة جرسها، وكثرة مافيها من ترهيب وتخويف وتوبيخ وتعنيف، وهو المناسب اللائق بحال مشركي مكة الطاغين الظالمين، وماأخرجه الإمام البخاري بسنده إلي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: في بني

---

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام الأية ٤٤ وانظر الإتقان في علوم القرأن للإمام السيوطي ج١ص١٦.

وكتبت باستفاضة عن ترتيب الآيات والسور وعن المكي والمدني في كتابي: «الدر النظيم في مباحث من علوم القرأن الكريم»..

إسرائيل والكهف ومريم وطه والآنبياء إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي[1].

ووجه ارتباط هذه السورة المباركة بالسورة التي قبلها وهي سورة طه:

أن السورتين تشتركان في كونهما مكيتين، وتعنيان كغيرهما من السور المكية بغرس أسس العقيدة وأصول الدين وتثبيتها في القلوب والإستدلال علي ذلك .

وأن السورتين تشتركان في عرض قصص بعض الآنبياء: فسورة طه ذكر الله فيها قصة موسي عليه السلام وموقف فرعون وملائه منه، وقصة آدم عليه السلام وموقف إبليس منه.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة بني إسرائيل ج٦ص١٠٣ وسورة الأنبياء ص١٢١ وكتاب فضائل القرأن باب تأليف القرأن ص٢٢٨.

وكلمة« عتاق» بكسر العين وتخفيف التاء المفتوحة علي وزن كرام، مفردها: عتيق بمعني قديم، وتطلق أيضا علي كل ما بلغ الغاية في الجودة.

وكلمة « تلادي» بكسر التاء وتخفيف اللام، والتالد: القديم، وضده: الطارف والطريف.

ويعني ابن مسعود رضي الله عنه وهو من المبكرين بالإسلام أن هذه السور الخمس نزلت مبكرة في العهد المكي وهي أول ماتعلم من القرآن ولها فضل كبير لما فيها من القصص وأخبار الأنبياء والأمم . أنظر فتح الباري لابن حجر كتاب التفسير سورة بني اسرائيل ج١٧/ ٢٨٠ وكتاب فضائل القرأن باب تأليف القرأن ج١٩/ ٥٠ ومختار الصحاح للرازي ص٣٥٦ والمصباح المنير للفيومي ص٧٦/٣٩٢.

أما سورة الأنبياء فذكر الله فيها قصص طائفة من النبيين ومنهم موسي وأخوه هرون عليهما السلام.

وأن الله ذكر في سورة طه نجاة موسي وهرون ومن معهما من المؤمنين من بطش فرعون وملائه، وذكر في سورة الأنبياء نجاة إبراهيم من النار، ولوط من القرية الظالم أهلها، ونوح من الكرب العظيم، وأيوب من الضر النازل به وعوضه خيرا، ويونس من الغم.

وأن سورة طه يتناسب مطلعها ومقطعها: فبدأها الله بالحديث عن القرآن وبيان مصدره ومهمته« ..ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي، إلا تذكرة لمن يخشي، تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلي... » ثم ختمها بالحديث عنه فقال: وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولي.... » أي الدليل المصحح والمصدق لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة وهو القرآن الكريم آية الآيات ورأس المعجزات.

ونجد سورة الأنبياء يتناسب مطلعها ومقطعها أيضا: فبدأها الله بالحديث عن اقتراب الساعة والحساب وعن الوحي الي رسوله صلي الله عليه وسلم، وبين بعض مواقف الكفرة وتعنتهم، وأنه واسع عليم لا تخفي عليه خافية، ثم ختمها بالحديث عن ذلك بدءا من قوله جل وعلا: « واقترب الوعد الحق.... إلي آخر السورة الحكيمة.

وأن سورة الأنبياء بدئت بآيات ترتبط بأواخر سورة طه: فالله جل ذكره وتبارك اسمه نهي في أواخر سورة طه رسوله صلي الله عليه وسلم

عن الركون إلي الدنيا والإعجاب بها والتطلع إلي زينتها وزخرفها في قوله: ولا تمدن عينيك إلي مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه.... » وأمره أن يستمر في الطاعة والتقوي والاصطبار عليها والزهد في الدنيا، ثم أعذر الكفار بإرسال رسوله وسطوع آياته، وهددهم وأوعدهم بقوله: قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدي»، ثم بدأ سورة الأنبياء بآية تزهد الناس في الدنيا، وتخوف الكفرة وتظهر استمرارهم في الغفلة والإعراض عن الله وتماديهم في اللعب واللهو، وتكشف عن تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلي الله عليه وسلم وعن خلافهم للمؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويتأثرون بالآيات الإلهية والمواعظ الربانية:

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر بأسانيدهم عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله واديا ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر رضي الله عنه لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون.... »(١).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير حـ ٣/ ١٧٢، وروح المعاني للآلوسي حـ ١٧ ، ص ٢، وفتح القدير للإمام الشوكاني حـ٣ ص ٣٩٦، ولا يتبادر الي ذهنك من قول عامر رضي الله عنه «نزلت اليوم سورة..» أن السورة نزلت جملة واحدة، لأن هذه السورة نزلت منجمة مفرقة كغيرها من معظم سور القرآن، فعامر يقصد بقوله صدرها بدليل قراءته للآية الأولي منها، فتنبه.

فبين السورتين العظيمتين ارتباط قوي ووشائج قربي متينة، وتماسك وتعانق، وهذه سمة من سمات القرآن الكريم ووجه من وجوه إعجازه العظيم، ومن ينعم النظر ويمعنه في السورتين الحكيمتين يمكنه بفضل الله أن يستخرج أوجها أخري في التناسب بين السورتين مضافة إلي ماسبق ذكره، والله الموفق(١).

عرض إجمالي لمعاني السورة ومقاصدها

بدأ الله هذه السورة الكريمة ببيان اقتراب الساعة ومحاسبة الخلق، وبين أن كفرة مكة في غفلة وإعراض عن الحق وفي لعب ولهو اتكالا وتوكأ علي شبهات ومزاعم هي أو هي وأوهن من خيط العنكبوت، وأنهم يقلدون غيرهم من الأمم الكافرة البائدة الجاحدة للرسالات السماوية بسبب زعمهم أن الرسل بشر مثلهم يريدون الزعامة والتفضل عليهم ويجب أن يكونوا ملائكة من السماء.

ورد الله عليهم هنا بأن كل الرسل رجال يوحي إليهم، وأنهم أجساد يأكلون الطعام ويموتون عند انتهاء آجالهم، وأنهم مأمورون بتبليغ رسالات ربهم وهو ناصرهم وصادق وعده معهم، وأنه أهلك المسرفين وكل قرية ظالمة، وليس أهل مكة خيرا ولا أقوي وأصلب من الأمم السابقة الغابرة، بل هم ليسوا شيئا إذا قيسوا بغيرهم من الكافرين الماضين .

(١) كتبت بحثا مستفيضا عن التناسب بين الآيات والسور في كتابي« العقد الفريد في مباحث من علوم القرآن المجيد »

ثم بين الله أنه منزه عن اللعب واللهو، وأنه لا يفعل ولا يقول إلا الحق، وأن الحق قوي يدمغ الباطل ويزهقه، وأن الملائكة بأنواعهم يثنون عليه الثناء الدائم بلا كلل ولا ملل، وأن الشرك وتعدد الآلهة الذي يعتقده الكفرة أمر واضح البطلان، لكل ذي جنان، إذ كل الكتب الإلهية والرسالات الربانية تدعو الي التوحيد الخالص وعبادة الله وحده، ولا دليل من النقل أو العقل علي صحة الشرك وجوازه، وأن أي مخلوق ولو كان عالي القدر سامي الشأن رفيع المقام يقول إنه إله من دون الله ويدعي ماهو مختص بالله فجزاؤه جهنم وهي جزاء كل ظالم.

ثم ذكر الله أدلة كونية مرئية تدمغ الكفرة وتفحمهم وتلقمهم الأحجار في أفواههم، وتثبت قدرة الله الواسعة المقتدرة وأنه فعال لما يريد، وأن مما أراده وسنه أن كل نفس منفوسة ذائقة الموت وحال بها، وأنه يبتلي بالشر والخير وأن الكل مرده ومصيره إليه وحده، فعلي رسول الله أن يصبر علي إيذاء قومه له واستهزائهم به، وأن يقتدي بغيره من الرسل في الصبر والتحمل والتجمل فليس بدعا من الرسل ولا شاذا عنهم، والكفار المعاندون له المستهزئون به سيحيق بهم جزاء مكرهم وبغيهم واستهزائهم كما حاق العذاب بالكفار السابقين.

وكان الواجب علي الكفار أن يشكروا نعم الله عليهم وأن يخبتوا له، وأن لا يغتروا ويعاندوا فالله لن ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة وستزداد حسرتهم ويعلوا صراخهم وعويلهم ويدعون علي أنفسهم بالويل والثبور حين

تمسهم نفحة من العذاب ويرون الموازين القسط ويحاسبون حسابا عسيرا.

ثم ذكر الله قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم تسلية وترويحا لرسوله وترفيها عنه وتثبيتا له وللمؤمنين به، وتحذيرا وترهيبا للكفرة حتي يرعووا عن غيهم وطغيانهم، فقد استجاب الله دعاء الرسل والمؤمنين بهم ونجاهم وأنعم عليهم وكذلك ينجي الله المؤمنين.

ثم بين الله أن الدين واحد وأن الرسالات واحدة في جوهرها وأصولها وأنه الرب المعبود بحق، لكن الكفار فرقوا دينهم ومزقوه وصاروا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون. ثم أخبر الله بشدة قرب الساعة والحال السيئة للكفار في جهنم، وقارن حالهم بحال السعداء الذين سبقت لهم منه الحسني، ليظهر الفارق بين الفريقين، ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

ثم ختم الله السورة الحكيمة ببيان أن رسوله رحمة للعالمين مهداة، ونعمة مسداة، وأنه يوحي إليه بالتوحيد الخالص الصافي من أي شائبة أو كدر، وأنه سيحكم بينه وبين الكافرين به المعرضين عنه فهو يعلم الجهر من القول ويعلم مايسرونه أو يكتمونه، وهو الرحمن الذي لا راحم غيره المستعان به علي مايصفونه به وينعتون به رسوله ومعجزته التي لا نظير لها. ومن خلال هذا العرض الإجمالي يتبين لنا أن هذه السورة الكريمة الرفيعة القدر تركز علي أصول الدين وأسس العقيدة وترسخها في القلوب والنفوس لتظهر آثارها الطيبة ونتائجها الحسنة في السلوك حتي يمشي الإنسان سويا

علي صراط مستقيم، فهي تقيم الأدلة علي توحيد الله، وعلي صدق رسوله في دعواه النبوة وما يبلغه عن ربه، وعلي حتمية مجيء يوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب.

وتفند كل شبهات الكفرة الفجرة وتدحضها وتمحقها. فيالها من سورة عظيمة انتظمت فيها آيات فخيمة.

بعض مواقف المشركين ودعاواهم

قال الله تبارك اسمه وتعالي ذكره:

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون(١) مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون(٢) لاهية قلوبهم وأسروا النجوي الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون(٣) قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم(٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(٥) ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون»(٦)

يستحب لمن يريد قراءة شيء من القرأن الكريم أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء والشروع في القراءة لقوله تعالي:« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»(١)، أي إذا أردت أن تقرأ فإستعذ.

وفي الإستعاذة بالله فوائد كثيرة منها: طرد الشيطان وإبعاده حتي لا يوسوس للقاريء ويشغله عن التفكر والتدبر فيما يقرأ، وتطهير الفم للنطق بكلام الله، وتطهير القلب وتخليصه من الشوائب والشواغل التي تشغله وتلهيه عن استقبال كلام الله والتفكر فيه وتفهمه.

١- سورة النحل ٩٨.

بل تستحب الإستعاذة بالله في كل موقف وحال فيه شر أو يتوقع منه شر.

وليست صيغة الإستعاذة المعروفة قرآنا، ولذا لم تكتب في المصاحف. ومعني الإستعاذة: ألتجيء إلي الله العلي القدير القوي العزيز المتين، وألوذ بجنابه وأتحصن بحصنه الحصين، وأعوذ به من كل شيطان ممقوت مطرود من رحمته وساحة رضاه أيا كان ذلك الشيطان، أن يمسني بسوء أو يصيبني بأذي.

أما البسملة فهي قرآن نازل من عند الله تعالي بالإجماع، وقراءتها عقب الإستعاذة مطلوبة وخاصة إذا نوي الإنسان القراءة من أول السورة، لأن كل سورة من سور القرأن الكريم استهلت بالبسملة ماعدا سورة التوبة فلم تنزل لها بسملة، أي أن البسملة ذكرت في أوائل السور القرآنية ١١٣ ثلاث عشرة ومائة مرة، ثم ذكرت مرة واحدة في ثنايا سورة النمل، وهي جزء آية منها بالإجماع، وذلك في قوله تعالي:« إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم(١).

وهي مطلوبة كذلك من كل إنسان قبل الشروع في أي عمل يتلبس به ويمارسه للتيمن والتبرك وليتحقق له العون والمدد من الله تعالي.

ومعني البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم): أبدأ كل أمر من أموري

(١) سورة النمل ٣٠

وأي شيء من شئوني بالإستعانة بسم الله جل في علاه، وأضرع إليه أن يسددني ويأخذ بيدي ويعينني علي إتمامه والإخلاص فيه مبتغيا رضاه، فرحمته وسعت كل شيء في الدنيا، وخص المؤمنين بها في الآخرة، ولا أسلك مسلك الكفرة الفجرة الذين يستعينون بمعبوداتهم المصنوعة، وآلهتهم المزعومة الموضوعة.

والإنسان مأجور ومثاب بفضل الله ورحمته علي استعاذته به من كل شر، واستعانته باسمه في كل ما يعزم عليه من أمر(١).

« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون».

بدأ الله سورتين في القرآن الكريم بهذا الفعل« اقترب»:

الأولي: سورة الأنبياء واستهلها الله بما سبق ذكره،

والثانية: سورة القمر وصدرها الله بقوله: اقتربت الساعة.... ».

ولا تنافي بين الجملتين لأن اقتراب زمن الساعة يتضمن اقتراب زمن الحساب وبدايته(٢). وكلمة« اقترب» مشتقة من الإقتراب، فهي بمعني:

---

(١) فسرت الإستعاذة والبسملة تفسيرا تحليليا في كتابي« إتحاف الجنان بتفسير أم القرآن».

(٢) جاء نحو هذا المعني في أول سورة النحل حيث يقول تعالي : «أتي أمر الله فلا تستعجلوه» وجاء الفعل «أتي» بصيغة الماضي للدلالة علي تحقق الوقوع فإن كل ما هو آت ووقوعه حتمي يكون قريبا ويجوز الإخبار عنه بالماضي.

قرب مثل: ارتقب ورقب، وابتعد وبعد، والقرب ضده البعد.

وذكر الله صيغة « اقترب» دون« قرب» لأن اقترب أبلغ منها فهي صيغة افتعال تفيد المطاوعة ومستعملة في تحقق الفعل، وأحرفها أكثر من أحرف «قرب» وزيادة المبني تدل علي زيادة المعني، فكلمة« اقترب» تدل علي شدة قرب وقت الحساب للناس ودنوه ومضيهم اليه.. وكلمة« للناس» جار ومجرور، وفي اللام الجارة هنا معني التأكيد والدلالة علي الإختصاص، وليست بمعني«من» أو بمعني«إلي» كما يري بعض المفسرين لأن أحرف الجر- وكذلك أحرف العطف ونحوها- إن صح أن تنيب بعضها عن بعض في كلام البشر فلا يصح أن ننيب بعضها عن بعض في كلام خالق القوي والقدر، إذ فضل كلام الله علي سائر الكلام كفضل الله علي سائر خلقه كما ورد في الحديث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم(١)

ويجب أن نفسر القرآن ونفهمه ببقاء كل حرف فيه علي ماهو عليه كما أنزل لأن كل حرف له إيحاؤه ومغزاه، ومعناه ومرماه، ولايليق أن نسلك مسلك الإنابة لما فيه من مظهر التعديل علي الله ونقص المعني، وإن لم يشعر بعضنا بنقص المعني شعر به البعض الآخر من ذوي الثقافة العالية والتذوق البلاغي المرهف والفتح الرباني.

---

(١) انظر سنن الترمذي ابواب فضائل القرآن حـ ٤ ص ٢٥٦ ، وقال عنه حسن غريب، وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب فضل كلام الله علي سائر الكلام حـ ٢ ، ص ٤٤١ عن ابي سعيد الخدري وعن شهر بن حوشب رضي الله عنهما .

و«من» عريقة في ابتداء الغاية، و«إلي» عريقة في انتهاء الغاية، ولو كانت إحداهما تسد مسد اللام هنا وتؤدي مؤداها لذكر الله إحداهما. ولم يذكر اللام خاصة، وصدق الله في قوله: لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه...(١).وقوله : وبالحق أنزلناه وبالحق نزل(٢)، وقوله: قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض(٣) .

وقدم الجار والمجرور علي الفاعل وهو« حساب» لأن المقام مقام تخويف وترهيب وترويع، وليحصل التشويق إلي معرفة الفاعل وحين يعلمه السامع يتمكن في قلبه فضل تمكن.

واختلف المفسرون في المراد ب« الناس» فقيل: إن المقصود من هذه الكلمة: كل الناس وتكون أل للجنس والاستغراق فكل الناس قادمون علي الله والساعة علي وشك الوقوع، وسيبعثهم الله بعد موتهم ويحاسبهم علي أعمالهم في الدنيا، ويثيب المطيع ويعاقب العاصي إلا من غفر له، وجملة« وهم في غفلة معرضون» تعود علي بعض الناس وهم فئات الكفرة بدليل الوصفين المذكورين ومواقفهم التي عرضتها السورة فيما بعد.

وقيل إن المراد من« الناس» المشركون بدليل الصفات المذكورة في الآية وما بعدها من آيات، وهو من إطلاق اسم الجنس علي بعضه، ويلحق

١- سورة النساء ١٦٦

٢- سورة الإسراء ١٠٥

٣- سورة الفرقان ٦

بالمشركين طوائف الكفرة علي مر الزمان أخذا بعموم الآية.

والحساب لغة: إخراج الكمية من مبلغ العدد، وقد يطلق علي المحسوب(١). والمقصود به هنا: حساب الله للناس بعد وقوفهم بين يديه، فالمطيع في الدنيا يدخله الله الجنة، والكافر يدخله الله النار، وكذلك المسلم العاصي إلا من غفر الله له وعفا عنه، ومن يدخلها من عصاة المسلمين يكون وجوده فيها مؤقتا.

فكلمة«حسابهم» من إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل مقدر أي حساب الله لهم، والضمير يعود إلي الناس فهم ذكروا مرتين مبالغة في التأكيد والتخويف.

وذكر الحساب ولم تذكر الساعة هنا مع أن الكفار ينكرونها لأن المقام مقام تخويف وترويع والحساب هو الذي يكشف عن حال العبد وعاقبته فذكره أوفق بالمقام، أما الساعة فهي آتية لا ريب فيها.

والجملة الكريمة في الغاية من البلاغة والذروة من الفصاحة لما فيها من براعة الإستهلال والتقديم والتأخير والتأكيد ورصانة الألفاظ، وأصلها« اقترب الحساب للناس» فقدم الظرف « للناس» وأخر الفاعل« الحساب» وحذفت آل وذكر عوضا عنها الضمير العائد إلي الناس، ويشبه هذه الجملة- مع الفارق الشاسع- قولهم: أزف للحي رحيلهم.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ج٦ص٢٩٥

وذكر الحساب والتصريح به يثبت أن في الأخرة حسابا للخلائق، وفيه رد علي بعض الفرق التي تنفي الحساب والشفاعة والميزان والصراط والحوض... إلخ سالكين مسلك التأويل الممقوت.

ولم يحدد الله وقت الساعة المتضمن للحساب واستأثر بعلمه لأن كتمانه أصلح للخلق كما أن كتمان وقت الموت أصلح ليبتلي الله العباد في إيمانهم بالغيب، ويحيا الإنسان بين الرغبة والرهبة والأمن والخوف، ويظل الأمل معقودا وموجودا في نفسه، ويستمر العمل في الدنيا وعمارة الأرض، ويفعل من الطاعات مايعينه الله عليه، ويبتعد عن المعاصي خوفا من الله.

ولو علم بالتعيين زمن الساعة أو زمن موته فإنه يرتكب من المعاصي ماراقه وماشاء، ويسود الظلم، وتسود الحياة، ثم يتوب وينيب الي ربه، ويعمل الصالحات قبل قيام الساعة أو قبل موته بقليل، وينقطع عن الأعمال الدنيوية، وتزول منه الآمال النفسية، ويكون انتظاره للموت أصعب من الموت نفسه.

« وهم في غفلة معرضون»: الواو واو الحال، والجملة الإسمية في محل نصب حال، والمقصود بالضمير«هم» الكفرة، فالكفرة في غفلة دائمة كبيرة منغمسون غارقون فيها، وفي إعراض مستمر عن طاعة الله والإستعداد ليوم الحساب الرهيب المقترب.

أما المؤمنون فهم يؤمنون كامل الإيمان بالجليل، ويعملون بالتنزيل، ويستعدون ليوم الرحيل.

والغفلة: عدم تذكر الشيء ونسيانه والذهول عنه وغيبته عن البال لعدم المبالاة به والتفكر فيه.

وجاءت الكلمة نكرة للدلالة علي عظم غفلة الكفرة وكبرها وشناعتها واستغراقهم فيها.

أما الإعراض فهو عدم التأمل في الآيات، وعدم النظر في الأدلة، والتولي عنها، وصرف العقل وسد الأبصار والأسماع عنها، والنفور منها، ومما يدل علي هذا قوله تعالي: « وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(١)، وقوله: « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون»(٢).

وجاءت الجملة اسمية للدلالة علي دوام غفلة الكفرة وإستمرار إعراضهم قلبا وقالبا عن الإيمان بالله ورسوله والإستعداد ليوم القيامة الذي اقترب منهم بما فيه من أهوال وهم قريبون منه ماضون اليه، فكلما مضي زمان ولو كان قليلا فانه يقربهم من يوم الحساب ولم يبق من عمر الدنيا إلا قليل ضئيل بالإضافة الي مامضي، ولذا جاء الفعل- اقترب- بصيغة الماضي لأن كل ماهو آت حتما قريب، ولقوله صلي الله عليه وسلم فيما رواه عنه الشيخان وابن ماجه والدارمي وأحمد بأسانيدهم إلي سهل بن سعد الساعدي وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وأبي

(١) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥ .

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام ٣٢ .

هريرة رضي الله تعالي عنهم: بعثت أنا والساعة كهاتين» وجمع رسول الله صلي الله عليه وسلم بين السبابة والوسطي(١)، فبعثه من علامات الساعة.

ومن الأدلة علي شدة قربها كالقرب بين الإصبعين ماقاله تعالي:

«يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها»(٢)، وقال في شأن الكفرة وموقفهم من يوم القيامة:« إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا »(٣). وقال فيهم أيضا:« قل كونوا حجارة أو حديدا،أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متي هو قل عسي أن يكون قريبا »(٤).

فالأية الكريمة تدعو الناس وتحفزهم وتحضهم علي الإستعداد التام ليوم الحساب وملاقاة الله الذي يسألهم عن كافة أعمالهم التي عملوها في

١- صحيح البخاري كتاب التفسير سورة النازعات ج٦ص٢٠٦. وكتاب الطلاق باب اللعان ج٧ص٦٨. وكتاب الرقائق باب قول النبي صلي الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ج٨ص١٣١. وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجمعة ج٢ص٥١٧. وكتاب الفتن باب قرب الساعة ج٥ص٨١٠/٨١١. وسنن ابن ماجه المقدمة باب اجتاب البدع والجدل، وكتاب الفتن باب أشراط الساعة ص١٧/١٣٤١. وسنن الدارمي كتاب الرقائق باب لايتمني أحدكم الموت ج٢ص٣١٣. والمسند للإمام أحمد ج٤/٣٠٩وج٥/٩٢/١٠٣/١٠٨.

٢- سورة النازعات ٤٢- ٤٣

٣- سورة المعارج ٦-٧

٤- سورة الإسراء ٥٠-٥١ .

الدنيا وعن نعمه التي أنعم بها عليهم هل عملوا بمقتضاها وأدوا شكرها؟

وتحذرالناس من الغفلة والتولي عن الله والإشتغال بغيره، وتخوف الكفار والعصاة الغارقين في الشهوات المنغمسين في الملذات الغافلين عن العمل لذلك اليوم الرهيب والإستعداد له اتباعا للأهواء والتسويلات الشيطانية وعما قليل ليصبحن نادمين، فالحساب دقيق، ولا تملك نفس لنفس شيئا، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا، وصدق الشاعر أبو العتاهية في قوله الذي نقله الحافظ ابن كثير(١):

الناس في غفلاتهم ورحي المنية تطحن

وصدق الإمام النسفي في قوله: الإقتراب عام، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين، فرب غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه، وإعراضه عن مولاه، ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه، وإعراضه عن دنياه، فهو لا يفيق إلا برؤية المولي، والأول إنما يفيق في عسكر الموتي.

فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وتتنبه للعرض قبل أن تنبه، وتعرض عن الغافلين، وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين، لتفوز بلقاء رب العالمين اهـ (٢)

١- تفسي القرآن العظيم لابن كثير ج٣ص١٧٢

٢- مدارك التنزيل للنسفي ج٣ص٧١، وهو قول جد نفيس يدل علي الشفافية والصفاء والورع والتقوي والصدق في القول والإخلاص في النصح.

« مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم.... »: وهذه الآية وما بعدها تبين حال المشركين حين استماعهم لما نزل من القرأن الكريم وتكشف عن مواقفهم المخزية المحزنة، وتبين أنهم في غفلة مستمرة وإعراض دائم عن كل مايذكر بالعمل لذلك اليوم العصيب والإستعداد لحسابه.

فهي مبينة لجملة« وهم في غفلة معرضون» دالة علي تمكن الغفلة منهم واستمرار إعراضهم ونفورهم من الحق. فالمقصود من الضمير المنصوب في كلمة« يأتيهم»: المشركون.

وكلمة« من» في قوله« من ذكر» صلة أو سيف خطيب، ولا يليق أن نقول إنها حرف جر زائد إجلالا لكلام الله وتعظيما له، وخشية أن يقع انسان -غير متخصص- في الخطأ فيظن أن القرآن زيد عليه ماليس منه أو أن فيه حروفا يمكن حذفها والإستغناء عنها، فما يجوز قوله في كلام البشر من إعرابات لا يجوز قوله في كلام الله تعالي جده وتبارك اسمه. ف« من» صلة وتفيد الشمول والإستغراق لأنها دخلت علي نكرة مسبوقة بنفي، وكلمة« ذكر» فاعل مرفوع بضمة مقدرة علي آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الصلة.

والمراد بالذكر: القرآن الكريم، وهو اسم من أسمائه ووصف من أوصافه يدل علي مزيد فضله ومديد شرفه، قال تعالي:« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، وقال الله مخبرا عن الكفرة:« وقالوا ياأيها الذي

نزل عليه الذكر إنك لمجنون»(١).

ووصف القرآن بهذا الوصف الذي اشتهر به حتي صار اسما من أسمائه لأنه ذكر وشرف لرسول الله ولقومه، ولأنه واعظ ومذكر ومرشد وموجه إلي كل خير، قال تعالي:« لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم»(٢)، « وإنه لذكر لك ولقومك»(٣)، « ص والقرآن ذي الذكر»(٤).

ويطلق الذكر علي اللوح المحفوظ لقول ابن عباس رضي الله عنهما:فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا... »(٥)، أي نزل من اللوح المحفوظ... وعلي كل كتاب إلهي لقوله تعالي:« قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي»(٦).

وعلي الوحي الإلهي لقوله تعالي مخبرا عن قوم ثمود:« أألقي الذكر عليه من بيننا »(٧).

وعلي التسبيح، فيقال: فلان يذكر الله أي يسبحه.ويوصف به النبي صلي الله عليه وسلم باعتباره مذكرا وهاديا.

وسياق الآية الكريمة يعين أن المراد به هنا: القرآن الكريم. وكلمة

١- سورة الحجر ٦-٩

٢- سورة الأنبياء عليهم السلام ١٠

٣- سورة الزخرف ٤٤

٤ - سورة ص ١

٥ - انظر الإتقان للسيوطي ج١ص٤٠

٦- سورة الأنبياء عليهم السلام ٢٤

٧- سورة القمر ٢٥

« من ربهم» جار ومجرور، و« من» لإبتداء الغاية، وكلمة الرب هي المناسبة للمقام، فالله يربي عباده علي موائد كرمه ونعمه، ونعمة الوحي أجل النعم، وأعظمها جلالا الوحي بالقرآن الي رسوله صلي الله عليه وسلم.

وناسب ذكر الرب هنا تكرارها في سورة طه وتكرارها في سورة الأنبياء عليهم السلام(١).

أما في سورة الشعراء فذكر الله كلمة« الرحمن» في آية تشبه الآية المذكورة، وهي قوله تعالي« وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين»(٢)، لأن ذكر لفظ« الرحمن» يخزي المشركين فرحمات الله إليهم نازلة سابغة، ومعاصيهم إليه صاعدة، فهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وينفرون منها.

وفي ذكر الرحمن أيضا تناسب قوي لأنه ذكر مكررا في سورة الفرقان في قوله: « الملك يومئذ الحق للرحمن» وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن...»، « وعباد الرحمن...»(٣)، وكررت هذه المادة كثيرا في سورة الشعراء في قوله:« وإن ربك لهو العزيز الرحيم»(٤).

فلا تنافي بين الآيتين، ولا تعارض بين النصين، فكل كلمة في القرآن

---

١ - ذكرت كلمة « رب» في سورة طه ٢٥ مرة وفي سورة الأنبياء عليهم السلام ١٣ مرة .

٢ - سورة الشعراء ٥   ٣ - سورة الفرقان ٢٦ - ٦٠ - ٦٣

٤ - سورة الشعراء ٩ وغيرها من الآيات.

لها مكانها المعلوم، ومقامها المتعين المحتوم، بل كل حرف فيه كذلك. « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١).

وكلمة« يأتيهم» في الآيتين تشعر بنزوله ووصوله اليهم بسهولة ويسر دون أن يبذلوا جهدا وعناء في الحصول عليه والفوز به، فهو أجل النعم التي منحها الله لهم بواسطة رسوله صلي الله عليه وسلم.

وكلمة « محدث» بقراءة الجر المتواترة صفة لذكر باعتبار اللفظ، والمحدث هو تنزيله، فقد بدأ الله تنزيله علي رسوله منذ ١٤٣٠ ثلاثين وأربعمائة وألف عام، منها ١٣ ثلاثة عشر عاما قضاها في مكة- علي القول الراجح- بعد البعثة، و١٠ عشرة أعوام بالمدينة.

ويدل علي هذا المعني قوله« يأتيهم» فإتيانه نزوله وهو حادث بلا ريب. واستدل المعتزلة ومن سار في ركابهم بهذه الكلمة علي أن القرآن مخلوق وحادث، وقالوا:

القرآن ذكر ، والذكر محدث ، فالقرآن محدث.

ومما دفعهم إلي هذا القول نفيهم صفة الكلام عن الله كغيرها من صفات المعاني، والآية الكريمة لا تشهد لهم لأن الله يتصف بالصفات الأزلية القديمة القائمة بذاته المقدسة ومنها صفة الكلام، فهي صفة نفسية

---

١ - سورة النساء ٨٢

قديمة قائمة بذاته، والقرآن الكريم كلامه، فلا يصح أن يوصف بأنه مخلوق أو حادث، وإنما الحادث هو نزوله ونقوشه المكتوبة بأيدي المسلمين، المتداولة علي الأوراق والصحف المرئية بأعينهم الدائرة علي ألسنتهم وشفاههم المسموعة بآذانهم الدالة علي كلامه تعالي.

والفارق شاسع بين الكلام اللفظي والكلام النفسي.

وقد شغلت هذه المسألة حيزا كبيرا في التاريخ الإسلامي وفي كتب العقيدة، ونشأ بسببها اضطهاد لبعض أئمة السلف وفطاحل العلماء وجهابذتهم في العصر العباسي في عهد المأمون والمعتصم والواثق وضربت رقاب بعض الأئمة بسبب ثباتهم علي القول بأن القرآن غير مخلوق وغير حادث، ووقف الخلفاء الثلاثة السابقة أسماؤهم إلي جانب المعتزلة وتعصبوا لأفكارهم وناصروهم، وكانت فتنة كبري ومصيبة عظمي ابتليت بها الأمة، أعاذنا الله من الفتن ماظهر منها وما بطن.

ولو أن المعتزلة أثبتوا لله صفة الكلام لقالوا بما قال به السلف ولحفظ الله دماء هؤلاء الأئمة، وصان الأمة من الفتنة.

وهذه المسألة ليست من التكاليف الفرعية الشرعية العملية ولا من أسس العقيدة الحتمي علمها، والوقوف علي دقائقها وتفاصيلها حتي نسأل عنها أمام الله، فهي تشبه الروح، والنفس، وأفضلية الملائكة أو الأنبياء ... وغير ذلك من المسائل التي هي من فضول الأبحاث،

ويستحسن أن نصون عقولنا وألسنتنا عن الخوض فيها ونوجه طاقتنا ونفرغ وسعنا ووقتنا في مسائل علمية أخري تفيدنا في ديننا ودنيانا(١).

« إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم»:

والإستثناء هنا مفرغ من عموم الأحوال، فاستماع المشركين كعدمه.

والجملة الإسمية في محل نصب حال.

واللعب: الإشتغال بما لايعني ولايفيد، ويدخل فيه هنا الإستهزاء والسخرية من الكفرة.

وكلمة« لاهية» بقراءة النصب المتواترة حال أخري مترادفة أو متداخلة، و«قلوب» فاعل لأن « لاهية» اسم فاعل وهو يعمل عمل الفعل، وهو من لهي عن الشيء بكسر الهاء إذا ذهل عنه وغفل وترك ذكره، والمصدر لهيا ولهيانا.

وجاءت الجملة إسمية للدلالة علي استمرار الكفار في اللعب واللهو، واللغط واللغو، وعدم مبالاتهم واكتراثهم بما يستمعونه من القرآن، فكلما أرشدهم الله إلي طريق الخير والحق مرارا إزدادوا منه نفورا وفرارا.

١- كتبت بإسهاب عن مسألة خلق القرآن ومحنة المسلمين بها في رسالتي التي أعددتها لنيل درجة الدكتوراه وهي بعنوان « الإمام الشوكاني المفسر حياته ومنهجه في التفسير» ص٤٩٦ ومابعدها.

قال الشيخ أبو بكر الوراق: القلب اللاهي: المشغول بزينة الدنيا وزهرتها، الغافل عن الآخرة وأهوالها ١هـ(١).

وأخر اللهو عن اللعب لأن اللهو بمثابة العلة للعب.

وهذه الأية تفيد أن القرآن نزل علي رسول الله منجما بدليل كلمة« يأتيهم» وكلمة«ذكر» المنكرة، وكلمة « محدث» ووصف حال الكفار المتجددة المستمرة.

أي كلما نزل الله علي رسوله شيئا من القرآن فيه إرشادهم الي الخير ونفعهم في أي حال من الأحوال، وأي وقت من الأوقات استمعوه وهم في تشاغل ولعب، واستهزاء وسخرية واستخفاف، ولهو وسهو قلبي، فلا يفكرون في كلام الله، ولايتدبرون معناه، فآذانهم تسمع، وقلوبهم لاتعي ولاتفقه، بسبب انطماس بصائرهم، وقساوة قلوبهم، ومن ثم شاركوا البهائم في الإستماع، وصاروا كالأنعام بل أضل سبيلا، ونفروا من رسول الله، كأنهم حمر مستنفرة، فسرت من قسورة. قال تعالي: نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذهم نجوي»(٢)

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»(٣)، « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لايعقلون»(٤).

١- مدارك التنزيل للنسفي ج٣ ص٧٢
٢- سورة الإسراء ٤٧
٣- سورة فصلت ٢٦
٤- سورة البقرة ١٧١

والآية الكريمة تذم الكفار وتزجرهم، وتشنع عليهم وتفضحهم، وفيها أيضا ذم وزجر لكل من يقرأ القرآن أو يستمع إليه بدون تدبر وتفكر وتطبيق، فتدبر وطبق ولا تكن من الغافلين.

«...وأسروا النجوي الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»:

وهذه الجملة « وأسروا النجوي ..» يصح أن تكون مستأنفة لبيان مواقف المشركين الخبيثة وأقوالهم الخسيسة وتآمرهم علي الرسول صلي الله عليه وسلم وعلي معجزته الكبري.

ويصح أن تكون معطوفة علي « لاهية» عطف مشتق علي مشتق كقوله تعالي: «...صافات ويقبضن»(١)، أي لهيت قلوبهم عن الإيمان وأسروا النجوي.

والواو «أسروا» تعود الي الناس الموصوفين بما تقدم ذكره.

« والنجوي»: مصدر بمعني التناجي، أو اسم منه، وهو الكلام الذي يقال سرا وهمسا بين اثنين فأكثر، وهو نوعان:

تناجي بالخير والبر والتقوي، وهو من صفات المؤمنين الصادقين.

وتناجي بالشر أي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهو من صفات المشركين والكافرين والمنافقين.

وذكر الله النوعين في سورة المجادلة فقال:

« ألم تر إلي الذين نهوا عن النجوي ثم يعودون لما نهوا عنه

١- سورة الملك ١٩

ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جادوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير، يأأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوي واتقوا الله الذي إليه تحشرون، إنما النجوي من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله...الآية(١).

واسم الموصول« الذين» بدل من الواو في« أسروا » ويشبه هذه الجملة قوله تعالي:« ثم عموا وصموا كثير منهم»(٢)، وقوله صلي الله عليه وسلم:« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث(٣)، والقول المشهور عن بعض العرب:« أكلوني البراغيث» وهي لغة أزد شنوءة وبني الحارث بن كعب(٤).

وهذا الإعراب المتقدم أظهر الإعرابات وأوضحها، وأليقها وأوفقها بالقرآن الكريم وفي الجملة أعاريب أخري ضربنا عنها صفحا، وطوينا عنها كشحا لما فيها من التكلف والتعسف الذي ينبغي أن ننزه القرآن عنه،« ويكفي من القلادة ماأحاط بالعنق».

١- سورة المجادلة ٨-١٠ ٢- سورة المائدة ٧١

٣- انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ج١ص١٣٨، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالي تعرج الملائكة والروح إليه ج٩ص١٥٤، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ج٢ص٢٧٨، وسنن النسائي كتاب الصلاة باب فضل صلاة الجماعة ج١ص٢٤٠، وموطأ مالك كتاب قصر الصلاة في السفر باب جامع الصلاة ص١٢٣، ومسند أحمد ج٢/٢٥٧/٣١٢/٤٨٦ وهو مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- انظر البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص٢٩٧ والتسهيل لابن جزي ج٣ص٢٢.

وجملة« ظلموا » لامحل لها من الإعراب صلة الموصول، والمفعول محذوف لإفادة العموم والشمول، أو للعلم به إجمالا، أو لتنزيل الفعل منزلة الفعل اللازم، وذكر الموصول وجملة الصلة لبيان ظلمهم الفاحش في تناجيهم.

والظلم: مجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه، فهو يتضمن التعدي والإيذاء والإنفلات، وهو نوعان:

الأول: ظلم خاص، وهو الكفر بالله تعالي، قال جل شأنه:« والكافرون هم الظالمون»(١)، وقال مخبرا عن نصح لقمان الحكيم لإبنه:« يابني لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»(٢)، وقال: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم- أي بشرك- أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»(٣).

وهذا الظلم الخاص يتولد عنه الكثير من الجرائم والموبقات والمهلكات كشرب الخمر، والزنا، وأكل الربا، والقتل بغير حق، ونحوها من الكبائر، إذ ليس بعد الكفر ذنب.

الثاني: ظلم عام : وهو ارتكاب بعض المعاصي وخلط الأعمال الصالحة بالأعمال الطالحة السيئة مثل خلف الوعد، إيذاء الجار، تطفيف الكيل أو الميزان، السرقة، ونحو ذلك.

وهذا الظلم العام يقع فيه الكافرون وبعض المسلمين، أما الظلم الخاص فيتصف به كل الكافرين، آي أن الكافرين يجمعون بين نوعي الظلم

١- سورة البقرة ٢٥٤ .
٢- سورة لقمان ١٣ .
٣- سورة الأنعام ٨٢ .

بخلاف المسلمين، فكل ظلم خاص يستتبعه ظلم عام، وليس كل ظلم عام يستلزم ظلما خاصا، فبينهما عموم وخصوص مطلق.

« هل هذا إلا بشر مثلكم.... »:

هذه الجملة من أولها إلي قوله تعالي:« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون- باستثناء آية:« قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم- تفسير للنجوي الذي أسروه، وبيان للتناجي الذي عملوا جهدهم علي إخفائه، حتي لايسمع ولا يفطن- بزعمهم- رب محمد ماقالوه، ولايعلم محمد أو أحد أتباعه، ولذلك ذكرت كلمة« أسروا » مع أن التناجي لايكون إلا سرا للدلالة علي مبالغة الكفرة في إخفاء وكتمان ماتناجوا وتواصوا به فيما بينهم.

فهذه الجملة هل هذا إلا بشر مثلكم» ومابعدها باستثناء مامر ذكره من تفسير القرآن بالقرآن، وهو أولي مراتب التفسير بالتقديم، وأحراها بالقبول.

و« هل» إستفهام إنكاري بمعني النفي، أي ماهذا إلا بشر مثلكم، وأفادت الجملة الحصر أو القصر وطريقه النفي والإستثناء.

والمعني بالإشارة والبشرية هو رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ومما يدل علي سوء نية الكفرة، وخبث طويتهم ومحاولتهم إهانة رسول الله وتحقيره والحط من شأنه: مجيء إسم الإشارة الموضوع في اللغة

ليشاربه إلي القريب، وتنكير كلمة« بشر » وحاش لرسول الله صلي الله عليه وسلم عما تكنه قلوبهم وتضمره نفوسهم من شر نحوه.

وجاءت كلمة «بشر» في القرآن مفردة كما هنا ، ومثناة في قوله تعالي إخبارا عن فرعون وملاته: «أنؤمن لبشرين مثلنا »(١)، وبمعني الجمع كما في قوله تعالي إخبارا عن الرسل: «إن نحن إلا بشر مثلكم»(٢)

وجاءت كلمة« مثل» مفردة كما هنا، ومثناة في قوله تعالي:

«.... يرونهم مثليهم رأي العين»(٣)، وجمعا في قوله تعالي:

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»(٤)، وغيرها من الآيات.

نعم محمد وسائر الرسل بشر مثل البشر، لكن الله اصطفاهم واجتباهم ومن عليهم، وأوحي إليهم، وهم لذلك صفوة البشر وخيارهم، لكن كفرة مكة كغيرهم من سائر الكفرة حاولوا التماس عذر وانتحال مبرر يقنعون به أنفسهم وغيرهم لعدم الإيمان برسل الله« يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون»(٥).

١- سورة المؤمنون ٤٧ .
٢- سورة إبراهيم عليه السلام ١١
٣- سورة آل عمران ١٣
٤- سورة محمد صلي الله عليه وسلم ٣٨
٥- سورة البقرة ٩

فهم قالوا كيف نؤمن برجال مثلنا ونعتقد فيهم أنهم رسل إلينا وهم بشر مثلنا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون النساء، وينجبون، ويموتون، ولو أراد ربنا أن يرسل إلينا رسلا لأنزل ملائكة، إن هؤلاء المدعين أنهم رسل بشر مثلنا يريدون التفضل والزعامة علينا، ومن ثم ذكر الله قولهم للرسل: «إن أنتم إلا بشر مثلنا»(١)، وقولهم عنهم متعجبين منكرين: «أبشر يهدوننا...»(٢).

هذه الدعوي قالها كفرة مكة، وسبقهم إليها غيرهم من سائر الكفرة.

وهذه الدعوي التي صرح بها كفرة مكة وغيرهم ممن سبقوهم كفرا وزمانا: دعوي كاذبة خاطئة باطلة عاطلة عن الحق والصواب، لأن الذين يسكنون الأرض ويعيشون عليها بشر فلابد أن يكون المرسلون إليهم بشرا مثلهم من جنسهم ونوعهم حتي يمكنهم مجالستهم والإيناس والتأسي بهم والتعلم منهم.

ولا يصح أن يكون الرسل إليهم ملائكة لاختلاف الطبيعتين، وتفاوت القوتين، طبيعة الملائكة وقوتهم، وطبيعة البشر وقوتهم، فلا يمكن للبشر مجالستهم، ولا التأسي بهم، والأخذ عنهم.

ولو أنزل الله إلي أمة منهم ملكا رسولا للزم أن يأتيهم في صورة

١- سورة إبراهيم عليه السلام ١٠

٢- سورة التغابن ٦

بشر حتي يمكنهم مجالسته والتعلم منه. وحينئذ سيقولون إنه بشر مثلنا، وينكرون ملكيته، قال تعالي:« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمرثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون»(١). وقال عز من قائل:« قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا»(٢)

ومادام الرسل بشرا فلا بد أن يجري عليهم مايجري علي البشر، بيد أن كل رسول صفوة أمته وأفضلها، ورائدها وأسوتها.

« أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»:

الهمزة للإستفهام الإنكاري، والجملة الفعلية معطوفة علي جملة مقدرة تناسبها، والتقدير: أتؤمنون بهذا البشر وبالقرآن فتأتون السحر إلخ.

والسحر مصدر، من سحر يسحر بفتح العين إذا أبدي مايدق ويخفي.

وفي الإصطلاح: أمر غريب يشبه الخارق وماهو به مبني علي الخداع والتمويه والتخييل(٣).

والسحر في جملته نوعان:

الأول: سحر ضار مفسد له تأثيره بإذن الله بواسطة السحرة والجن،

١- سورة الأنعام ٨- ٩

٢- سورة الإسراء ٩٥ .

٣- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص٤٣٤ وروح المعاني للآلوسي ج١ ص٣٣٨.

وهذا هو النوع الذي ركز عليه أهل مكة الكفرة، فهم وصفوا رسول الله صلي الله عليه وسلم بأنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والأخ وأخيه، قال تعالي:« أكان للناس عجبا أن أوحينا إلي رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »(١).

وقال: وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب»(٢)، وقالوا إن به مساً من الجن، وقال بعضهم لبعض:« إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »(٣).

ووصفوا القرآن المنزل عليه بأنه سحر حتي قال أحد أكابر مجرميهم وهو الوليد بن المغيرة عن القرآن:« إن هذا إلا سحر يؤثر »(٤).

وحين بزغ فجر الإسلام وانتشر ضحاه وعرضوا علي رسول الله عروضا لعله يترك مايدعوإليه كان من بين العروض المطروحة المقترحة:

« إن كان الذي يأتيك بسبب مس من الجن بذلنا لك الطب حتي تداوي وتشفي».

وهذا النوع من السحر وصف به كفرة الأمم السابقة رسلهم، فأهل

١- سورة يونس عليه السلام ٢
٢- سورة ص ٤
٣- سورة الإسراء ٤٧ وسورة الفرقان ٨
٤- سورة المدثر صلي الله عليه وسلم ٢٤

مكة شاركوهم في وصف الوحي بالسحر، ووصف الرسل بأنهم سحرة، وهي دعوي ثانية، يدعونها ويتعللون بها لعدم إيمانهم بالرسل، قال تعالي:

« كذلك ماأتي الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون »(١)

ولا يخلو هذا النوع من السحر من تمويه وتلبيس.

وهذا اللون من السحر اشتهر به اليهود منذ زمن بعيد، وله كتبه، ويمكن تعلمه، وتدور حوله أحكام فقهية، وتفريعات وتفصيلات تشريعية، يرجع إليها في كتب الفقه والكتب الخاصة بتفسير آيات الأحكام.

الثاني: الإعجاب والتأثر بكلام بليغ يستمع إليه الإنسان، أو يقرأه إن كان قارئاً، فيهتز قلبه، وتتجاوب نفسه، ويتحرك وجدانه، ويشتد إنتباهه، وينجذب إليه، لقوة ألفاظه، وصحة معانيه، وهذا ماأشار إليه رسول الله صلي الله عليه وسلم بقوله:« إن من البيان لسحرا »(٢).

١- سورة الذاريات ٥٢

٢- انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب النكاح باب الخطبة ج٧ص٢٥، وكتاب الطب باب من البيان سحر ص١٧٨، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجمعة ج٢ص٥٢٢، وسنن الترمذي أبواب البر والصلة باب ماجاء إن من البيان سحراج٣ص٢٥٣ ،وسنن أبي داود كتاب الأدب باب ماجاء في المتشدق في الكلام ج٤ص٣٠٢. وسنن الدارمي كتاب الصلاة باب في قصر الخطبة ج١ص٣٦٥، وموطأ مالك كتاب الكلام باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ص٦١٠ ومسند أحمد ج١ص٣٠٩ وفي أماكن أخري كثيرة من الجزء الأول والثاني والثالث. وهو مروي عن ابن عمر وابن عباس وابن مسعود وعمار بن ياسر وعبد الله بن الشخير رضي الله عنهم، وهو من الأمثال النبوية المشهورة.

والقرآن الكريم أعظم البيان، وأفضل الكلام. دكل كلام المخلوقين دونه بمراحل، وشتان مابين كلام الخلق وكلام الخالق جل وعلا.

إن القران الحكيم قد بلغ الذروة في الفصاحة، والقمة في البلاغة، والسنام في رصانة الأسلوب، وقوة التركيب، وعظم التناسب والترتيب، وصار معجزا في ألفاظه ومعانيه الصادقة المطابقة للواقع، وتأثر به القاصي والداني، وشهد بفضله الأعداء والأصدقاء حتي إن أكابر أهل مكة كان يذهب بعضهم كأبي جهل بن هشام وأبي سفيان بن حرب والأخنس بن شريق سرا في جوف الليل إلي بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم متسللين يستمعون إليه وهو يتلو القرآن ويقبعون في أماكنهم إلي أن ينفجر الفجر، وتكرر ذلك منهم(١).

ووصفه أحد صناديدهم بقوله: « إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ومايعلي عليه».

وصدق الجن في قولهم: « إنا سمعنا قرآنا عجبا »(٢).

وحين يصف الكفار القرآن بأنه سحر لايقصدون هذا النوع الثاني وحده وإنما يضمون إليه النوع الأول وهو ماقال به سائر كفار الأمم الغابرة كما علمت عن كثب.

١- انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير في تفسير قوله تعالي من سورة الإسراء: نحن أعلم بما يستمعون به: الآية ج٣ ص٤٤.

٢- سورة الجن ١

ويستحيل علي رسول الله- وكذلك غيره من الرسل- أن يكون ساحرا بالمعني الذي قصده كفرة مكة، ولو كان كذلك لتعلموا السحر بواسطة يهود يثرب وغيرهم، وواجهوا رسول الله وعارضوا مايقوله وأتوا بمثله.

ومن المعلوم أن كل الرسل عليهم السلام معصومون.

وجملة« وأنتم تبصرون»: جملة اسمية في محل نصب حال، وحذف مفعول« تبصرون» لمراعاة فواصل الآيات، ولـلإيجاز، ولإفادة العموم والشمول، ولإتاحة المجال للنظر والتفكر في تقديره، ولتذهب النفس في تقديره كل مذهب.

ويصح أن ينزل الفعل منزلة اللازم فلا يحتاج إلي مفعول.

ويخاطب الكفار بعضهم بعضا بهذه الجملة المادحة ليشجعوا أنفسهم علي البقاء علي الكفر، والثبات عليه، والإستمرار فيه، فهي جملة مقررة للإنكار مؤكدة للإستبعاد.

أي كيف تؤمنون بمحمد وتقبلونه وترضونه رسولا وهو ساحر، والقرآن الذي ينطق به سحر، وأنتم أهل بصر، وذوو حصافة وفراسة وحنكة ولستم غفلا.

« قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم »:

وهذه الآية جاءت معترضة بين مواقف الكفرة وأقوالهم لتخويفهم وترهيبهم، وبيان سعة علم الله، وأنه يعلم السر وأخفي من السر، وسيجازيهم بالعقاب الأليم لتناجيهم بالشر، ووصفهم رسول الله بما ليس فيه حتي لا يعودوا إلي مثله، « سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »(١).

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف« قال » بصيغة الماضي، والفاعل ضمير مستتر يعود إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، أي قال الرسول لهم ربي يعلم ... إلخ.

وقرأ الباقون« قل » بصيغة الأمر والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت والمقصود به رسول الله صلي الله عليه وسلم، أي قل لهم يامحمد ربي يعلم... إلخ.

والقراءتان صحيحتان متواترتان ولا تنافي بينهما في المعني: فعلي قراءة الإخبار: أطلع الله رسوله علي تناجيهم ليخبرهم، وعلي قراءة الأمر: الرسول مأمور أن يخبرهم كذلك(٢).

و« أل » في« القول » للإستغراق، وذكر علمه بالقول ولم يذكر علمه

١- سورة الأنعام ١٣٩

٢- انظر جامع البيان للطبري ج١٧ ص٣ والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣٢٣ وفي قراءة خلف خلاف والله أعلم.

بالفعل صراحة لأنه إذا علم القول فعلمه بالفعل من باب أولي، لأن الأقوال ألفاظ سيالة منطوقة منقولة شفاها عبر الأثير، أما الأفعال فهي أمور حسية ملموسة تسهل رؤيتها والعلم بها، فإذا علم الله الأخفي كان علمه بالأظهر من باب أولي.

ولأن القول يكون جهريا وسريا ونفسيا، فإذا علم الله بالأنواع الثلاثة وعلم بذات الصدور وكنهها، واستوت كلها عنده، كان علمه بالأفعال من باب أولي.

قال تعالي:« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفي »(١)،« إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون »(٢)،« وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور »(٣)، « إنه يعلم الجهر وما يخفي »(٤).

وسياق الآيات يناسبه التصريح بعلمه بالقول، لآن الآيات تتحدث عن تناجي الكفار فيما بينهم وتواصيهم بالشر سرا.

وينبغي أن تعلم أن القول عمل باللسان، وأن الفعل عمل بالجوارح والأركان

قال تعالي:« ياآيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون »(٥).

١- سورة طه ٧ ٢- سورة الأنبياء ١١٠ ٣- سورة الملك ١٣
٤- سورة الأعلي ٧
٥- سورة الصف ٢

فالقول والفعل يجمعهما العمل.

و« السماء» لغة: كل ماعلاك وأظلك، والمقصود بها هنا: السماوات السبع الطباق ومافوقها، فأل للجنس.

وجاءت مفردة لفظا لأن المقصود بها جهة العلو، وقدمت علي الأرض لشرفها، وعلو قدرها، وعظم مكانتها ومكانة من فيها، ولاشتمالها علي آيات باهرة، وأدلة قاهرة، وإذا جاءت مجموعة في آية من الآيات فإن الملاحظ فيها العدد.

و« السميع العليم»: صيغتان من صيغ المبالغة، تدلان علي سعة سمع الله بالمسموعات وقوته، وسعة علمه بكل شيء وإحاطته، فهما صفتان من صفاته تعالي، وكل صفاته أزلية قديمة قائمة بذاته تعالي، وهي حقائق تطابق الحق والواقع، والمبالغة في حقه حقيقة وليست خيالا ولا إدعاء ولا تمثيلا.

وقدم السمع علي العلم لأنه يلزم من سمع المسموعات العلم بها(١). ولأن صفة العلم أعم وأشمل.

ونلاحظ أن عجز الآية الكريمة مرتبط بصدرها وأن مقطعها تناسب مع

١- انظر مفاتيح الغيب للرازي ج٢٢ ص١٤٣

مطلعها، فأولها يثبت لله سعة العلم، وآخرها يثبت له سعة العلم، وهذا محسن بديعي يعرف في البلاغة برد العجز علي الصدر، أو تناسب المطلع والمقطع.

فالآية الكريمة ذكرها الله في ثنايا كلام الكفرة الذي أخبرنا به للتعجيل بالرد عليهم، وإلقاء الرعب والفزع والهلع والتخويف في قلوبهم ببيان سعة علمه، وأنه لاتخفي عليه خافية في السماوات والأرضين، وقد علم ماتناجوا به سرا، وتشاوروا وتحاوروا فيه همسا، للصد عن سبيل الله وعن رسوله، وسيلقون الجزاء الأليم لكفرهم وبغيهم.

« بل قالوا أضغاث أحلام»:

« بل» هنا في الآية المذكورة كررت، وهي للإضراب الإنتقالي أي الإنتقال من غرض إلي غرض آخر، فكفرة مكة يصفون القرآن ورسوله بأوصاف كاذبة لصد الناس عن الإيمان به، والتماس الأعذار لموقفهم الكفري المتعنت، وينتقلون من وصف الي وصف مما يدل علي اضطرابهم في الرأي، وتشتتهم في الفكر، وحيرتهم في الوصف، وإنهزامهم أمام عظمة القرآن وإعجازه، وصدق الله العلي العظيم في قوله:« والسماء ذات الحبك، إنكم لفي قول مختلف»(١).

١- سورة الذاريات ٧ - ٨

فهم قالوا عنه إنه« أضغاث أحلام »، وهذه دعوي أخري، وهي ثالثة الأثافي، و« أضغاث» جمع ضغث بكسر الضاد، ومعناه: أخلاط أحلام وأباطيل وأهاويل يراها في المنام وليس لها تأويل.

ويطلق الضغث في الأصل علي الحزمة التي تجمع أنواعا شتي من النباتات المختلطة الرطبة واليابسة وبخاصة الحشيش(١).

و« أحلام» جمع حلم بضم الحاء وإسكان اللام وهو مايراه الإنسان من شر وقت نومه، ومعروف أن الرؤيا من المبشرات، وتكون في الخير، وهي من الله، أما الحلم فهو من الشيطان، ويشتهر لدي الناس بالهواجس والكوابيس.

أما الحلم بضم الحاء واللام فهو البلوغ قال تعالي:« وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا.... »(٢).

وأما الحلم بكسر الحاء وإسكان اللام فهو هدوء الطبع ولين النفس وحسن السمت إنه سيد الأخلاق كما قيل، وهو من صفات الله ثم النبيين والصالحين وصف الله به نفسه فقال:« إنه كان حليما غفورا »(٣)، ووصف به إبراهيم الخليل عليه السلام فقال:« إن إبراهيم لحليم أواه منيب»(٤)،

١- أنظر القاموس المحيط للفيروزا بادي ج١ ص١٦٩ ومختار الصحاح للرازي ص٦٢ والمصباح المنير للفيومي ص٣٦٢.

٢- سورة النور ٥٩

٣- سورة الإسراء ٤٤

٤- سورة هود عليه السلام ٧٥ .

ووصف به إسماعيل عليه السلام فقال: « فبشرناه بغلام حليم »(١)،

ووصف قوم شعيب شعيبا عليه السلام بقولهم الذي أخبرنا الله به: « إنك لأنت الحليم الرشيد »(٢)، فهو خلق طيب رفيع.

فكفار مكة يزعمون أن محمدا يري في المنام أشياء مختلطة، وحين يصبح الصباح يعبرها ويصورها بأسلوبه للناس علي أنها وحي نازل عليه من الله.

وهذه دعوي مختلقة مفضوحة لأن الأحلام من الشيطان ومعظمها لا يطابق الحق والواقع، ومعلوم أن الشيطان ليس له تسلط علي عباد الله المؤمنين، فما بالنا بصفوتهم وهم الأنبياء، ومابالنا بصفوة الصفوة، وسيدهم وخاتمهم، وهو رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكل مانطق به قرأنا كان أو سنة ثابتة يطابق الحق والواقع، فهو ماضل وماغوي، ومانطق عن الهوي، إن هو إلا وحي يوحي، علمه شديد القوي، ورؤاه صلي الله عليه وسلم المنامية من الوحي، ومارأي رؤيا إلا كانت صادقة وتحققت مثل فلق الصبح كما قالت عائشة رضي الله عنها(٣).

ولو كان القرآن الكريم أضغاث أحلام لكان في نهاية الركاكة والمخالفة للحق والواقع.

١- سورة الصافات ١٠١ ٢- سورة هود عليه السلام ٨٧

٣ - انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي الي رسول الله صلي الله عليه وسلمج١ص٥ وكتاب التفسير تفسير سورة اقرأ ج٦ ص٢١٤، وكتاب التعبير باب أول مابدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة ج٩ ص٣٧.

ولو كان أهل مكة صادقين في وصفهم محقين في قولهم وفيهم من يحلمون ويرون أشياء منامية، فلم لم يؤلفوا كلاما يعارضون به القرآن، ويجابهونه وهم أرباب الفصاحة، وفرسان البيان والبلاغة، وأبناء بجدتها.

« بل افتراه» : وهذا إضراب انتقالي آخر، فهم يزعمون أن محمدا افتري القرآن، وابتدعه واختلقه، والألفاظ ومعانيها من عنده ومن تلقاء نفسه وبنات فكره.

وهذه دعوي أخري للكفرة الفجرة وهم يعلمون أن محمدا صلي الله عليه وسلم صادق أمين، وأنه أمي، وعاش أميا، وماجلس بين يدي معلم من البشر، ولئن كانت الأمية منقصة وعيبا في غيره فهي فيه كمال وتشريف، ،وكل ألفاظ القرآن ومعانيه صادقة سامقة مؤيدة بالحق والواقع، وقد تحدي رسول الله صلي الله عليه وسلم الثقلين: الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا- في نهاية مطاف التحدي- بسورة من مثل القرآن فعجزوا، ولا يزال التحدي قائما وسيظل باقيا مابقي القرآن، ولا يزال العجز دائما ومستمرا، وقد كان رسول الله صادقا في تحديه موقنا بهزيمتهم أمام القرآن علي مر الأزمان وشعورهم بالعي والعجز حتي صاروا صرعي أمام فصاحة وبلاغة ألفاظه وصدق معانيه وتساميها

ولو كان القرآن مفتري من عند محمد- كما زعموا- ورآهم عجزة صرعي لما إكتفي بادعاء النبوة وإنما كان يدعي الإلهية، وصدق الله في قوله المبين:« ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين »(١).

١- سورة الحاقة ٤٤- ٤٧ .

وإذا كان الذين يفترون علي الله الكذب لايفلحون فكيف يفتري الكذب علي الله رسول الله صلي الله عليه وسلم؟ وأيم الله إن قول الكفار لشيء عجاب.

« بل هو شاعر »:

وهذا زعم آخر من مزاعمهم، ومحاولة إيجاد مبرر لعدم إيمانهم برسول الله صلي الله عليه وسلم، فهم يدعون أنه شاعر وأن القرآن الذي ينطق به قول شاعر.

وقد رد الله عليهم بقوله: « وماعلمناه الشعر وماينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »(١)، وبقوله« وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون »(٢).

وهذا حق وكلمة فصل في الدعوي، فالله يقص الحق وهو خير الفاصلين،(٣)،« ومن أصدق من الله حديثا »،« ومن أصدق من الله قيلا »(٤).

إن الكفار يغالطون ويغالون في الكفر والتعنت والإفتراء لأنهم يعرفون تمام المعرفة الكلام المنظوم من المنثور، ويعلمون علم اليقين أن رسول الله صلي الله عليه وسلم ما قرض الشعر قط وماحفظ أبياتا منه مع أنه كان أفصح من نطق بلسان قومه، وكان محيطا باللغة ملما بها، وكانت هناك أسواق موسمية تنعقد للشعر وللنثر، ويختار الحكام أجود القصائد

١- سورة يس ٦٩ ٢- سورة الحاقة ٤١-٤٢ ٣- سورة الأنعام ٥٧

٤- سورة النساء ٨٧ - ١٢٢

والخطب، كانت الأسواق كالمعارض في عصرنا بيد أنها معارض للكلام.

ومع هذا عصم الله رسوله من قرض الشعر ومن حفظ أبيات منه، وكان إذا نطق بشيء من الشعر محفوظ مشهور لدي العرب مستشهدا به استعصي عليه النطق به كما ورد وكما قيل، فكان أبو بكر الصديق أو غيره من الصحابة رضي الله عنهم يصحح لرسول الله صلي الله عليه وسلم البيت أو الشطر أو يذكر له الكلمة التي استبدل غيرها بها.

لقد أعده الله وهيأه وفرغه لتحمل أعباء الرسالة، وطهر قلبه وقالبه من الشعر، لأن المعروف أن الشعراء لهم خيالاتهم وتوهماتهم ويتبعهم الغاوون، وفي كل واد يهيمون، ويقولون مالا يفعلون، إلا من رحم ربك- وقليل ماهم- وهم الذين أمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا.

ولو أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال شعرا أو حفظ آبياتا بنصها منه لوجد الكفار في رسول الله مطعنا، وفي القرآن مغمزا، وطاروا بذلك فرحا وتشنيعا، وسجله التاريخ.

إن الوصف الذي قالوه عن رسول الله وعن القرآن ماهو إلا تخريق، واختلاق وتخريف، ولو كانوا محقين وفيهم فطاحل الشعراء وآساطين الأدباء فلم لم يؤلفوا كلاما يعارضون به القرأن.

وإذا ثبت عصمته صلي الله عليه وسلم عن قرض الشعر وحفظ

أبيات منه- وهي ثابتة له- انتفى كون القرآن قول شاعر، وصدق الله العليم في قوله الكريم:« وماعلمناه الشعر وماينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»(١).

« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون»:

وهذه الفاء للفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر يفهم من سياق الكلام، والتقدير: وإن لم يكن الأمر كما قلنا وكان رسولا كما يدعي فليأتنا بآية

وكلمة« آية» لها معان لغوية كثيرة(٢) والقرينة هي التي تعين المراد بها، والمراد بها هنا: المعجزة.

وذكر الكفار لفظ الإتيان في جانب رسول الله ولفظ الإرسال في جانب الرسل الأولين لأن الإتيان بالمعجزة لا يكون إلا بعد الإرسال، وللمبالغة في الإنكار منهم لرسول الله وكأنه سيأتي بالآية المطلوبة من تلقاء نفسه.

فالكفار متحيرون متخبطون مختلفون في وصف رسول الله ووصف القرأن- وهو شأن المغلوب الأحمق والمهزوم اليائس- ولم يجمعوا علي وصف واحد معين يقفون عنده، ومن ثم قالوا في النهاية: إن لم يكن الحال كما قلنا ووصفنا فليأتنا محمد بمعجزة مثل معجزات غيره من الرسل

١- سورة يس ٦٩ ٢- تكلمت عنها في كتابي: الدر النظيم في مباحث من علوم القرآن الكريم« مبحث ترتيب الآيات والسور.

السابقين كناقة صالح، وعصا موسي ويده، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسي، وغير ذلك من المعجزات، وحين يأتينا بآية نؤمن بها وبه.

وقد أنطق الله كفار مكة بالحق وشهدوا علي أنفسهم، فهم أعلنوا هنا أن لله رسلا سابقين ذوي معجزات مشهورة.

ويقال لهم لم لم تؤمنوا برسول الله محمد وتجعلوه مثل غيره من الرسل الماضيين وقد جاءكم بمعجزات كثيرة حسية ومعنوية تفوق معجزات غيره.

ثم إن الآيات- المعجزات- ليست بيد رسول الله ولا من عنده وباختياره، وإنما هي من الله وحده، ولا تكون إلا بإذنه وعلمه، يظهرها متي شاء وكيف شاء علي من شاء من عباده.

قال تعالي: « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلي عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون »(١) ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »(٢)،« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون »(٣)،« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله »(٤).

١- سورة العنكبوت ٥٠-٥١ ٢- سورة الرعد ٧ ٣- سورة الأنعام ١٠٩

٤- سورة الرعد ٣٨ وسورة غافر ٧٨

« ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون»:

وهذه الأية مستأنفة ولها سبب نزول وهو:

أن أهل مكة قالوا للنبي صلي الله عليه وسلم: إن كان ماتقول حقا،ويسرك أن نؤمن، فحول لنا الصفا ذهبا، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، فأنزل الله الآية القرآنية المذكورة(١).

وكلمة« ما» نافية، و«من» صلة أو سيف خطيب، وأفاد ذكرها مقرونة بالنكرة المسبوقة بالنفي الإستغراق والشمول، و« قرية» فاعل، وجملة« أهلكناها» صفة لقرية، والهمزة للإستفهام الإنكاري أي إنكار وقوع إيمانهم جميعا لعتوهم. والجملة الإسمية معطوفة علي جملة مقدرة تناسب المقام، والتقدير: أيفكرون بتعقل وجد واهتمام فهم يؤمنون، أي يؤمنون جميعا.

والتهديد والإنكار الموجودان في الآية لحفزهم إلي الإيمان برسول الله صلي الله عليه وسلم، وقد آمن به- ولله الحمد والفضل- كثير منهم بل آمن به بعض ألد أعدائه وخصومه وأولاد شانئيه مثل: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن العاص.....

ونفي الله الإيمان عن القرية المهلكة والمراد أهلها للإيجاز بالحذف ولإفادة المبالغة بأن أهل القرية وأصحابها كفروا، وازدادوا كفرا وبغيا حتي

١- انظر لباب النقول للسيوطي ص١٤٧ وورد في بعض الروايات أن الرسول قال: بل أستأني بقومي.

عرفت جدران القرية وشوارعها وأزقتها وغيرها من الجمادات كفرهم وعتوهم وشهدت بذلك وتأثرت له.

ولأن القرية المهلكة ظرف وأهلها والمقيمون فيها مظروفون، وإذا أهلك الله القرية ودمرها فأهلها وقاطنوها مهلكون ومدمرون من باب أولي

قال تعالي:« وتلك القري أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »(١)، وقال:« وماكنا مهلكي القري إلا وأهلها ظالمون»(٢).

فهذه الآية تماثل قوله تعالي:« واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها »(٣)، وقوله في شأن لوط عليه السلام:

« ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث»(٤)، وغيرهما من الآيات التي يسند فيها القول أو الفعل إلي الجمادات للفوائد التي ذكرتها آنفا.

فهذه الآية الكريمة توبخ كفار مكة وتروعهم وتبين أنهم يسلكون مسالك الأمم الكافرة الغابرة التي أهلكها الله ودمرها، وأهلك قراهم وتبرها، بسبب طغيانهم وكفرهم بالرسل وعدم إيمانهم بالآيات التي طلبوها، وأنهم إن استمروا جميعا علي الكفر فسيصيبهم شؤم كفرهم ووبال طغيانهم ويحل بهم ماحل بالسابقين الكافرين، وصدق الله في قوله:« أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها »(٥)، وقوله:« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتي يروا العذاب الأليم»(٦)

١- سورة الكهف ٥٩ ٢- سورة القصص ٥٩ ٣- سورة يوسف عليه السلام ٨٢

٤- سورة الأنبياء عليهم السلام٧٤ ٥- سورة محمد صلي الله عليه وسلم ١٠

٦- سورة يونس عليه السلام ٩٦ - ٩٧

فالأية الحكيمة ترد علي طلبهم من الرسول أن يأتيهم بمعجزة وقد سألوه أن يأتيهم بها سؤال تعنت وتنطع، ولو علم الله أنهم يؤمنون جميعا لحقق لهم طلبهم، ولكنه لم يجبهم ويحقق اقتراحهم رحمة بهم وفضلا، لأنه جرت سنته أنه إن حقق معجزة لقوم طلبوها ولم يؤمنوا عاقبهم بعقاب الإستئصال والإبادة، ولم يفعل الله ذلك بأهل مكة إكراما لنبيه(١) ورحمة بهم ولعلمه بأنه سيؤمن بعضهم، وسيخرج من أصلابهم من يوحده ويعبده حق العبادة.

قال العلامة الآلوسي: هم كالباحث عن حتفه بظلفه، وإن في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم١ﻫ(٢)

الرد على دعاوى مشركى مكة

قال الله تعالي:

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون(٧) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين(٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين(٩) لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون(١٠):

وعلاقة هذه الآيات بما قبلها أنها رد علي كفار مكة الذين زعموا

١- قال تعالي في سورة الأنفال: وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»٣٣

٢- انظر روح المعاني للآلوسي ج١٧ص١١-١٢ وانظر ماقاله الإمام الحسن البصري في مفاتيح الغيب للرازي ج٢٢ص١٤٣ وعبارته أوسع من عبارة الآلوسي.

المزاعم الخمسة السابقة وهي: أن محمدا بشر مثلهم ولايصح أن يكون الرسول بشرا، وأن القرآن سحر، وأضغاث أحلام، ومفتري، وقول شاعر.

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم»

وفي الجملة المذكورة قصر طريقه النفي والإستثناء، وقرأ حفص «نوحي» بضم النون وكسر الحاء أي بصيغة المبني للفاعل، وقرأ باقي القراء« يوحي» بضم الياء وفتح الحاء أي بصيغة المبني للمفعول، أو لما لم يسم فاعله(١) للعلم بالفاعل وهو الله تعالي.

وجملة« نوحي» في محل نصب صفة لرجال، أو مستأنفة لبيان كيفية الإرسال.

وجاء الفعل بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة، ولم يذكر المفعول لعدم القصد إلي خصوصه(٢)، أو لإفادة عموم الوحي أي نوحي إليهم مانوحي من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار وغيرها.

ولهذه الآية نظير في سورة النحل وهو قوله تعالي:« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»(٣).

ولا تعارض بين الآيتين، فذكر« من» في سورة النحل يفيد البعد الزمني والتوغل في الزمن الماضي، وعدم ذكر« من» في الآية التي معنا

١- انظر حجة القراءات لأبي زرعة ٤٦٦ والنشر لابن الجزري ٢ص٣٢٣.

٢ - انظر ارشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٥٦ وروح المعاني للآلوسي ج١٧ص١٢

٣- سورة النحل ٤٣.

يفيد القرب الزمني من بعثة رسول الله صلي الله عليه وسلم، أي أن كل من اصطفاهم الله للنبوة والرسالة من لدن آدم عليه السلام إلي آخرهم قبيل رسول الله رجال من الإنس، ورسول الله مثلهم.

فذكر «من» في آية النحل وعدم ذكرها في آية الأنبياء حصر المدة الزمنية لبعثة الأنبياء والمرسلين من أولهم إلي آخرهم(١).

ولا تنافي بين الآيتين فكل منهما تكمل الأخري وتزيدها معني، وتنزه كلام الله بل تنزه وحيه عن الإختلاف والتعارض« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »(٢).

وهذه الآية وغيرها صريحة في أنه لم توجد امرأة رسولة ولا نبية ومن قال غير ذلك فقد جانبه الصواب، أما قوله تعالي:« وأوحينا إلي أم موسي أن أرضعيه.. » الآية (٣) فهو وحي إلهام وليس وحيا بشرع وتكليفا بتبليغ رسالة إلهية، وكذلك الوحي إلي مريم ابنة عمران.

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون »:

والفاء لترتيب مابعدها علي ماقبلها، أو للفصيحة فهي جواب لشرط مقدر . والتقدير: إن جهلتم ياأهل مكة أو إرتبتم في أن كل الأنبياء والرسل رجال فاسألوا أهل الذكر.

وفي الأية الكريمة التفات من الغيبة إلي الخطاب لتقريع مشركي مكة

١- انظر البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص١٢٨.

٢- سورة النساء ٨٢ ٣- سورة القصص ٧

وتسجيل الجهل عليهم وعدم المعرفة، وهذه هي نكتة الإلتفات الخاصة.

والمراد بأهل الذكر: علماء أهل الكتاب من اليهود والنصاري لأن كلمة الذكر تطلق علي كل كتاب سماوي، وعلي الوحي الإلهي، وعلي اللوح المحفوظ، وغير ذلك كما عرفت من قبل، قال تعالي:« فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك»(١).

وأهل الكتاب كانوا يشايعون المشركين في عداوة رسول الله ويشاورونهم في شأنه، وكون الرسل جميعا رجالا أمر متواتر شائع معلوم لهم بالضرورة، أي سلوهم هل كان الرسل السابقون بشرا أو ملائكة يجيبوكم.

ويجوز أن يكون المراد بأهل الذكر أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم فهم أهل القرآن وخاصته.

ولا تنافي بين المعنيين فالجملة الكريمة تحتملهما والقرآن حمال ذو وجوه.وجملة « إن كنتم لاتعلمون» شرطية يفهم جوابها من سياق الآية، وحذف مفعول« لاتعلمون» لمراعاة فواصل الآيات وللإيجاز وإفادة العموم والشمول ولإتساع مجال التأمل والتفكر في تقديره ولذهاب النفس في تقديره كل مذهب، أو أن الفعل منزل منزلة الفعل اللازم فلا يحتاج إلي مفعول أي إن كنتم من غير ذوي العلم.

ووصف كفار مكة بهذه الجملة« إن كنتم لا تعلمون» تجهيل لهم

١- سورة يونس عليه السلام ٩٤

وتسفيه لعقولهم وزراية بهم حتي يرعووا عن غيهم ويثوبوا إلي رشدهم ويقبلوا علي التأمل والتفكر والإعتبار ليصلوا إلي الحق المبين.

وجملة« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون» مثل من أمثال القرآن المرسلة، فتقال هذه الجملة في المناسبة التي تلائمها وتليق بها كأن يسأل إنسان إنسانا آخر عن شيء وهو غير عالم به ولا متخصص فيه فيقال للسائل: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة الكثير من الأمثال المرسلة، والمثل القرأني المرسل هو: النطق بآية أو جملة قرآنية بغض النظر عما قبلها وعما بعدها في مناسبة تليق بها في موقف جد وإهتمام.

فالآية الكريمة تثبت صراحة أن كل النبيين والمرسلين رجال من البشر وعلي أهل مكة أن يسألوا أهل العلم والإختصاص إن جهلوا ذلك وأرادوا العلم به أو التيقن منه، ولابد أن يكون النبييون والمرسلون من البشر لما علمت من قبل(١).

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

« لقد كان الرسل رجالا من البشر ليعيشوا حياة البشر فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس..... وليقلدهم الناس ويتأسوا بهم في جزئيات حياتهم.... وليكرم الله الجنس البشري كله باختيار الرسل منه .... ومحمد صلي الله

١- يقول الإمام الطبرسي في كتابه مجمع البيان ج٧ص٦٤: الشكل إلي الشكل أميل، وبه آنس، وعنه أفهم، ومن الأنفة منه أبعد ا هـ.

عليه وسلم أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية الدائمة، إنه أكمل نموذج لحياة الإنسان علي الأرض بكل مافيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة »(١)

« وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين »:

وهذه أوصاف أخري لرسل الله وأنبيائه عليهم السلام بعد أن سبقت لهم أوصاف في الآية الماضية.

و« ما » نافية، والنفي مسلط علي قوله تعالي« لا يأكلون الطعام» ولا يصح أن يكون مسلطا علي كلمة« جسدا » وحدها لأن ذلك يفضي إلي فساد المعني فالرسل والأنبياء أجساد وذوات.

ومعني الجملة الكريمة: ما جعلنا الرسل والأنبياء أجسادا غير آكلة للطعام كالملائكة وإنما جعلناهم أجسادا آكلة للطعام لا تستغني عنه.

فالنفي مسلط علي نفي، ونفي النفي إثبات علي وجه التأكيد أي جعلناهم أجسادا تأكل الطعام.

و« جسدا » يصح أن يكون مفعولا ثانيا أي صيرناهم ذوي جسد ابتداء ومن أول الأمر. وهو كقول العرب: سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل.

ويجوز أن يكون حالا مؤولة بمشتق، لأن« جعل » تأتي بمعني التصيير وبمعني الخلق.

١- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ج٤ ص ٢٣٦٨ بتصرف .

والجسد: مصدر من جسد الدم يجسد من باب فرح إذا التصق بغيره، وأطلق علي الجسم والبدن جسدا لالتصاق أجزائه بعضها ببعض، ويطلق علي الواحد وغيره، وجاء هنا مفردا باعتبار الجنس المفيد للتكثير أو بتقدير مضاف أي ذوي جسد.

والجسد والجسم بمعني واحد، وقيل إن الجسد غير الجسم فالجسد كلمة تطلق علي العقلاء من الأحياء وهم الإنس والجن والملائكة، قال تعالي:« ولقد فتنا سليمان وألقينا علي كرسيه جسدا ثم أناب»(١) وقال في شأن السامري: فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار»(٢).

فكل جسد جسم وليس كل جسم جسدا.

و« الطعام» كلمة تطلق علي مايؤكل ويشرب قال تعالي« كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل علي نفسه... »(٣) وقال:« فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده»(٤) وقال جل ذكره في شأن الخمر: « ليس علي الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ماإتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات.... » (٥).

١- انظر القاموس المحيط للفيروز ابادي ج١ص٢٨٣، والآية من سورة ص ٣٤ ٢- سورة طه ٨٨ وأطلق علي العجل جسدا باعتبار ظن بني إسرائيل أنه عاقل وبه حياة، ولأنه صنع من الحلي وجسد.

٣- سورة آل عمران ٩٣ وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام. ٤- سورة البقرة ٢٤٩

٥- سورة المائدة ٩٣

« وما كانوا خالدين» أي أن كل الرسل والأنبياء السابقين ماتوا، كل مات حين إنتهي أجله وانقضي عمره المكتوب له في الدنيا، وما كان أحد منهم بخالد فيها، ولو كان الخلود جائزا لأحد لكان رسل الله وأنبياؤه أولي به.

وهذه الجملة تشير إلي أن رسول الله محمدا كغيره من الرسل والأنبياء، وقد صرح الله بهذا في نفس السورة فقال:« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون»(١)، وقال:« إنك ميت وإنهم ميتون»(٢)، وقال:« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم علي أعقابكم... »(٣).

أما عيسي عليه السلام فإن الله رفعه إلي السماء حيا حين حاول كفرة بني إسرائيل قتله، وسينزله الله في آخر الزمان عاملا برسالة محمد صلي الله عليه وسلم داعيا إليها مجددا لها، ونزوله من علامات الساعة ثم يموت حين ينتهي أجله كما هو معلوم.

وفي إيثار« ماكانوا » علي« ماجعلناهم» تنبيه علي أن عدم الخلود والبقاء مقتضي جبلتهم في هذه النشأة التي أشير إليها بقوله تعالي:« وماجعلناهم جسدا... إلخ لا بالجعل المستأنف(٤).

« ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين»:

١- سورة الأنبياء عليهم السلام ٣٤ ٢- سورة الزمر ٣٠
٣- سورة آل عمران ١٤٤
٤- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٥٧ وروح المعاني للآلوسي ج١٧ص١٣

« الوعد » مفعول ثان علي الراجح لأن الفعل« صدق » يتعدي إلي مفعولين، قال تعالي:« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق »(١).

وقد صدق الله وعده وأنجز عهده مع رسله بالمعونة والتأييد والنصر لدينه، ووعده لا يتخلف، قال جل وعلا:« فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله »(٢)،

وقال:« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز »(٣)، وقال: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(٤)، وقال جل شأنه وتعالي جده:« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون »(٥).

وذكر« ثم » يفيد التراخي في الزمن والذكر والرتبة لأن الرسل متتابعون متلاحقون كما قال تعالي:« ثم أرسلنا رسلنا تتري..الآية (٦)، فبين كل رسول وغيره في البيئة الواحدة(٧) فترة زمنية، وهم يبتلون بأعدائهم وخصومهم ويزلزلون حتي يقول الرسول منهم والذين آمنوا معه متي نصر الله، ثم يأتيهم النصر الساحق علي أعدائهم وينجيهم الله وينجي من آمنوا بهم من كيد أعدائهم ويتحقق نصر الله الحق، ووعده الصدق، فذكر« ثم » هو الأنسب والأليق والأوفق بالمقام، وقد عرفت معناها وسر مجيئها موضحا.

١- سورة الفتح ٢٧. ٢- سورة إبراهيم عليه السلام ٤٧
٣- سورة المجادلة ٢١ ٤- سورة غافر ٥١
٥- سورة الصافات ١٧١-١٧٣ ٦- سورة المؤمنون ٤٤ ٦- موسي وهرون عليهما السلام كانا في حكم الرسول الواحد لأن هرون كان وزيرا وعضدا لأخيه موسي ولذلك أمرهما الله أن يقولا لفرعون: إنا رسول رب العالمين» سورة الشعراء ١٦

وذكر الفعل« نشاء » بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية.

« وأهلكنا المسرفين »:

الإسراف: مجاوزة الحد، والمراد به هنا: مجاوزة الحد بالإكثار من المعاصي صغيرها وكبيرها مضمومة الي الكفر، فالمسرفون في الآية هم الكفار قال تعالي:« وأن المسرفين هم أصحاب النار »(١) أي ملازموها ومخلدون فيها ولا يخلد فيها إلا الكافرون.

وإذا كان الإسراف ممنوعا في الطاعات والمباحات بدليل قوله تعالي:« وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »(٢)، وقوله في حق عباد الرحمن« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »(٣)، وقوله: كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين »(٤)، وغير ذلك من الآيات، فما بالنا بالإسراف في المعاصي، ومابالنا في الإسراف في الكفر والتصلب والتعصب له، والصلف والزهو به.

ووصف الله الكفار السابقين بهذا الوصف وهو الإسراف لبيان العلة والسبب في إهلاكهم، فالله أهلكهم ودمرهم لأنهم مسرفون في الكفر ووسائله وأسبابه ونتائجه.

ومن فضل الله ورحمته بكفار هذه الأمة أن الله قال« أهلكنا »

١- سورة غافر ٤٣
٢- سورة الأنعام ١٤١
٣- سورة الفرقان ٦٧
٤ - سورة الأعراف ٣١

بصيغة الماضي ولم يقل« نهلك » لأن عذاب الكفار الماضيين كان عذاب استئصال وإبادة وقد رحم الله كفار هذه الأمة منه كما عرفت سابقا.

وبين كلمتي: أنجينا وأهلكنا: طباق، وبين أواخر الآية وأوائلها مقابلة وتتضمن الأية الكريمة التبشير بالخير والإنذار بالشر، فتنبه لما في القرآن المجيد من محسنات بديعية، وألوان بلاغية، ولا تغفل.

« لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون»:

وعلاقة هذه الآية بما قبلها: أن الله جل وعلا بعد أن أدحض شبهة الكفار ومقولتهم التي قالوا فيما بينهم سرا، وبين أن الرسل والأنبياء رجال من البشر يوحي إليهم مايوحي وأنهم أجساد يأكلون الطعام ويموتون بانتهاء آجالهم وأن الله معهم وناصرهم ومدمر أعدائهم المسرفين وأن حال محمد كحال غيره من الرسل فليس بدعا منهم ولا شاذا عنهم ذكر في هذه الآية معجزته والدليل الأعظم علي صدقه وهو القرآن الكريم، وبين منته وتفضله علي أهل مكة فقال: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم».

وفي الآية المذكورة رد عليهم كذلك حيث زعموا أن القرآن سحر وأضغاث أحلام ومفتري وقول شاعر.

واللام في كلمة« لقد» دالة علي القسم أي والله لقد أنزلنا، ويأتي القسم في القرآن الكريم لأغراض كثيرة وفوائد عظيمة منها: تأكيد المعني وترسيخه في القلوب ولفت النظر إليه.

و« قد» حرف يفيد التحقيق والتأكيد لأنه دخل علي الفعل الماضي« أنزلنا»، أما إذا دخل علي الفعل المضارع فانه يفيد الإحتمال كقولك: قد

يسافر والدي إلي القاهرة اليوم» أي قد يسافر وقد لا يسافر.

هذه حالها ومعناها إلا في جانب الله تعالي فهي ليست للإحتمال وإنما تكون للتأكيد والقطع والتحقيق دائما لأن صفات الله أزلية قديمة ثابتة له قائمة بذاته لايطرأ عليها تغير أو تجدد واحتمال.

و« قد» للتحقيق والتأكيد في مثل قوله تعالي:« قد يعلم الله المعوقين منكم»(١) « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا»(٢)« قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون..»(٣) ...إلخ فهي للتحقيق في جانب الله سواء دخلت علي الماضي أو المضارع.

والمراد بالكتاب هنا: القرآن الكريم، ونكرت الكلمة للتعظيم والتفخيم ولا أعظم ولا أفخم في الكتب الإلهية من القرآن المجيد.

وتسمية الكلام المعجز المنزل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم بأنه كتاب لأنه كتب في اللوح المحفوظ وفي صحف الملائكة، وكتب بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم، وسيظل مكتوبا منشورا في أيدي المسلمين محفوظا في صدورهم، فالكتابة في السطور والحفظ في الصدور صفتان من صفاته اللازمة له.

ووصفه الله في القرآن بالإنزال كما هنا والنزول والتنزيل.

ومعني« فيه ذكركم»: شرفكم وعزكم وسعادتكم وقوام حياتكم ونهضتكم كما قال تعالي:« وإنه لذكر لك ولقومك»(٤).

أو فيه وعظكم وإرشادكم ونصحكم وتوجيهكم إلي الخير وإبعادكم عن الشر وحجزكم عن السوء كما قال تعالي: ص والقرآن ذي الذكر»(٥).

١- سورة الأحزاب ١٨ ٢- سورة النور ٦٣ ٣- سورة الأنعام ٣٣
٤- سورة الزخرف ٤٤ ٥- سورة ص ١

أو فيه ذكر عقائدكم وقبائحكم ومثالبكم وتصرفاتكم السيئة، وتسفيه عقولكم وأعمالكم فأنتم تشركون بالله مالم ينزل به سلطانا ويقتل بعضكم بعضا بغير حق، وتئدون بناتكم، وتتعاملون بالربا، وتتعاقرون الخمر، وغير ذلك مما هو مدون عنكم في القرآن الكريم.

ولا تنافي ولا تعارض بين المعاني الثلاثة المذكورة فكلها موجودة في القرآن الكريم، والجملة القرآنية- فيه ذكركم- تحتملها كلها، بيد أن بعضها أولي بالتقديم من بعض، وأولويتها تكون وفق الترتيب الذي ذكرته.

« أفلا تعقلون»: استفهام إنكاري توبيخي وتقريعي لمشركي مكة والجملة معطوفة علي جملة مقدرة أي أتكفرون فلا تعقلون؟.

فالله عز وجل يبين في الآيات السابقة أن كل الرسل الذين أرسلهم قبل محمد صلي الله عليه وسلم إلي الأمم الماضية كانوا رجالا من البشر، وإن إرتاب أهل مكة في ذلك أو جهلوه فليسألوا أحبار أهل الكتاب وعلماءهم أو غيرهم ممن عندهم دراية واسعة بأخبار الرسل السابقين، ومادام الرسل بشرا فانهم يحتاجون إلي مايحتاجه البشر ويعتريهم ما يعتريهم من الطعام، والزواج، والسرور والحزن، واليقظة والنوم، والصحة والمرض، والمشيء في الأسواق للتجارة وقضاء المصالح وغير ذلك مما هو ضروري في حياة البشر، ثم يموتون حين تنتهي آجالهم.

وبين الله أنه وفي بوعده معهم- ومن أوفي بعهده من الله- فنصرهم ومن آمنوا بهم، وأيدهم، وأعلي دينه وأظهره علي الدين كله، وأهلك الباغين المسرفين المعادين لهم.

ثم بين تفضله علي أهل مكة وعلي كل من آمن برسول الله بنزول الكتاب المبين العظيم الشأن، النير البرهان، الذي فيه عز العرب وكل المؤمنين به، وشرفهم، وصيتهم، ورفعتهم، ونصحهم وإرشادهم، وهو معجزة رسول الله الكبري وحجته الباقية الخالدة.

لقد سما به سلفنا الصالح، وحملوا حضارة الإسلام ومثله ونشروها في العالم أجمع، وصارت لهم الزعامة والقيادة... وحين قصر الأحفاد في العمل به وتطبيقه تطبيقا كاملا ذلوا، وصاروا أذيالا لغيرهم، وأتباعا لأعدائهم، وتفرقوا أيدي سبا، والأمر لله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وينبغي أن تعلم أيها القاريء الكريم أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن مشركي مكة وجزائهم ليس المقصود بها مشركي مكة وحدهم، وإنما المقصود بها جميع الكفرة الذين بلغتهم الدعوة وينهجون نهجهم علي إختلاف نحلهم وأجناسهم وبلادهم من يوم تنزل القرآن إلي آخر الزمان، ويدخل فيها أهل مكة دخولا أوليا.

وأن الآيات التي تتحدث عن المؤمنين العاملين للصالحات وجزائهم

ليس المقصود بها أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وحدهم، وإنما المقصود بها جميع المؤمنين العاملين للصالحات علي إختلاف أجناسهم وبلادهم وألوانهم من يوم تنزل القرآن إلي آخر الزمان، ويدخل فيها أصحاب رسول الله دخولا أوليا ولهم الصدارة.

وأن الآيات التي تتكلم عن عذاب جهنم وتسعر النار وعذاب أهلها فيها يدخل فيها الكفرة في كل الأزمنة والأمكنة.

وأن الآيات التي تتكلم عن الجنة ونعيمها وتمتع أهلها فيها يدخل فيها المؤمنون الصالحون في كافة الأزمنة والأمكنة.

فالنار ليست لكافري هذه الآمة وحدهم، والجنة ليست لمؤمني هذه الآمة وحدهم.

إذ العبرة في القرآن الكريم بعموم ألفاظه لا بخصوص أسباب نزوله، وهو كتاب دائم عالمي وليس كتابا مؤقتا محليا، فكن علي ذكر من ذلك وعض عليه بالنواجذ.

إنذار وتهديد وتحذير شديد

قال الله تبارك وتعالي:

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين(١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون(١٢) لاتركضوا وارجعوا إلي ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون(١٣) قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين(١٤) فما زالت تلك دعواهم حتي جعلناهم حصيدا خامدين(١٥):

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله تعالي لما رد علي كفار مكة مزاعمهم وأفحمهم وأثبت رسالة محمد صلي الله عليه وسلم وذكر معجزته الكبري ومنته العظمي وهي القرآن الكريم خوفهم وهددهم بذكر هذه الآيات، فهم أقل شأنا وأضعف قوة وحالا من كفار الأمم الماضية.

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة »:

« كم » هي الخبرية التي تفيد التكثير، وتقع مفعولا به مقدما، و« من قرية » تمييز لها، فهي غير« كم » الإستفهامية.

وكلمة« قرية » نكرة تفيد العموم والشمول وزادها عموما وشمولا مجيئها بعد« كم » المكثرة، وتقدير الكلام: قصمنا كثيرا من القري، فهذه الجملة تشبه قوله تعالي:« وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح(١). وقوله:« وكم أهلكنا قبلهم من قرن... »(٢).

١- سورة الإسراء ١٧

٢- سورة ق ٣٦

ومثل« كم » الخبرية في إفادة التكثير كلمة« كأين ».

والقصم بالقاف من باب ضرب: أفظع الكسر وأشده لأنه كسر الشيء وتمزيق تركيبه وتفريق أجزائه وانفصال بعضها عن بعض مع بينونة بحيث لا يمكن الإلتئام والإنتفاع.

أما الفصم بالفاء فمن باب ضرب أيضا وهو: صدع الشيء من غير قطع وانفصال أي من غير بينونة(١).

وذكر القصم دون الفصم لما تقدم ولأن القصم بالقاف الشديدة وهذا يدل علي قوة الغضب وشدة السخط وفظاعة الإهلاك، أما الفصم فبالفاء الرخوة، ومن ثم كان ذكر القصم أنسب بالمقام.

ولم يذكر أهل القرية مع أنهم هم المقصودون للإيجاز بالحذف ولإفادة المبالغة، فالقرية ظرف لهم وإذا أهلك الله الظرف فالمظروف هالك من باب أولي، ثم إن في ذكر الظرف إفادة بالإبادة والتدمير الشامل والإستئصال.

والمقصود بالظلم هنا: الشرك وسائر المعاصي أي الظلم بنوعيه الخاص والعام كما علمت سابقا.

وفي إسناد الظلم إلي القرية مجاز ودلالة علي شيوعه وانتشاره بين أهلها واستغراقهم فيه حتي تأثرت بذلك الجدران والشوارع وسائر الجمادات.

---

(١) انظر الصحاح للجوهري حـ ٥ ص ٢٠٠٢، ٢٠١٣، والقاموس المحيط للفيروز ابادي حـ ٤ ص ١٦٥.

وذكر« كان» باعتبار الزمن الماضي وللدلالة علي تعمقهم في الظلم واستفحاله فيهم ونشأتهم الفاسدة وبيئتهم العطنة النكدة.

« وأنشأنا بعدها قوما آخرين»: أي أوجدنا بعد أهل هذه القرية أمة أخري غيرهم، وهذه هي سنة الله في خلقه فبعد أن يهلك أمة ينشيء ويوجد أمة أخري بعدها تخلفها، فقوم عاد خلفوا قوم نوح، وقوم ثمود خلفوا قوم عاد.... فالله سبحانه جعل الأمم خلائف كما جعل الناس خلائف في الأرض.

قال بعض العلماء إن المراد بالقرية المذكورة في الآية قرية سحول وقيل حضور باليمن وهي تقع غرب صنعاء وقريبة منها، أرسل الله إليهم نبيا إختلف في إسمه فقيل شعيب وقيل موسي وقيل حنظلة وقيل غير ذلك فكذبوه وعدوا عليه وقتلوه وأشاعوا الكفر والذعر والكبائر، فسلط الله عليهم بختنصر ملك بابل فحاربهم وقتلهم وإستأصلهم وهو نفسه الذي خرب بيت المقدس من قبل وحارب اليهود، وصدق الله في قوله« وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون»(١)، ولما نزل العذاب بهم سمعوا نداء من السماء يقول: يالثارات الأنبياء.

وقيل إن عذابهم كان من السماء سلطه الله عليهم(٢).

وعلي هذا القول فالتكثير الموجود في الآية باعتبار كثرة أفراد القرية الكفرة.

١- سورة الأنعام ١٢٩

٢- انظر فتح القدير للشوكاني ج٣ص٤٠١ - ٤٠٤

والظاهر العموم بدليل« كم» المفيدة للتكثير، والقرية القريبة من مدينة صنعاء اليمن تدخل تحت عموم الآية وتتدرج ضمن شمولها وهي واحدة من القري التي تخبر عنها الآية(١).

« فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون»:

والضمير في« أحسوا » يعود إلي أهل القرية، والكلمة من الإحساس وهو إدراك الشيء بالحاسة، أي لما رأوا مقدمة العذاب بأبصارهم أو أدركوه بحواسهم وتيقنوا نزوله بهم فاجأ بعضهم بعضا بالركض كل يحاول أن ينجو بنفسه ويهرب من العذاب النازل المحدق بهم.

و« البأس»: الشدة ومعناه هنا: العذاب القوي الشديد، و« إذا » فجائية والجملة جواب الشرط، والضمير في« منها » يعود إلي القرية المقصومة الظالمة أو يعود إلي البأس باعتبار النقمة والعقوبة.

والركض هو: العدو بسرعة وباتساع الخطي مع سماع وقع الأقدام علي الأرض، وهو نوع من أنواع الحركة، وهو من باب قتل، ومأخوذ من ركض الرجل دابته أي تحريك رجليه عليها بقوة يستحثها علي السرعة، ومنه قوله تعالي:« اركض برجلك»(٢).

وقيل إنهم ركبوا دوابهم وركضوها واستحثوها علي السير والفرار بسرعة.

١- انظر التسهيل لابن جزي ج٣ص٢٣ والبحر المحيط لأبي حيان ج٦ص٣٠٠ والكشاف للزمخشري ج٣ص٥ وروح المعاني للآلوسي ج١٧ص١٥.

٢- سورة ص٤٢

وهذه الجملة القرآنية تفيد شدة الرعب الذي حل بهم، وقوة الفزع والهلع الذي أصابهم وزلزلهم.

« لا تركضوا وارجعوا إلي ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون»:

وهذا نداء لهم فيه نهي، قيل إنه نداء بلسان المقال أي نادتهم الملائكة وقالت لهم: لا تركضوا...إلخ، أو أن المنادي لهم المؤمنون منهم والصالحون الناجون، نادوهم فقالوا لهم: لاتركضوا ...إلخ.

وقيل إن النداء كان بلسان الحال، أي حالهم ووضعهم وواقعهم كان ينادي عليهم بذلك.

والنداء بلسان المقال لا ينفي النداء بلسان الحال، بل الثاني يصاحب الأول ويلازمه.

فهذه الآية تتضمن النداء الذي ينهاهم عن الركض، وتبين أنه عديم الجدوي، عقيم الفائدة والثمرة، ولا مفر من نزول العذاب بهم وإحاطته لهم وإهلاكهم، ويأمرهم بالرجوع والعودة إلي ترفهم ومساكنهم ومتعهم ولين عيشهم لعل سائلين يسألونهم الصدقة والإحسان وكانوا يتصدقون رياء وزهوا وسمعة، أو كانوا بخلاء أشحاء.

أو يسألونهم عن سبب عذابهم وعما جري لهم فيجيبونهم عن علم ومشاهدة.

أو يسألونهم عن ترفهم ومتعهم الكثيرة ونعمهم الوفيرة التي أطغتهم وأبطرتهم.

أو يسألونهم أن يؤمنوا كما كانوا يسألونهم ذلك من قبل نزول العذاب.

والمترف: المتنعم يقال: أترف فلان أي وسع عليه في عيشه، وفلان أترفته النعمة إذا أطغته أو نعمته، ويقال: ترف فلان من باب فرح.

وهذا النداء الشامل للنهي والأمر والترجي والتوقع فيه من السخرية والأستهزاء والتهكم والإزدراء بهؤلاء الكفرة مافيه.

« قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين »:

أي قال هؤلاء الكفرة إبان الركض هذه الجملة بتحسر وتفجع واستعطاف وندم، وهو دعاء منهم علي أنفسهم بالويل وبيان استحقاقهم للعذاب الحال بهم واعتراف منهم بظلمهم لأنفسهم، أي ياهلاكنا ودمارنا،

وتطلق هذه الكلمة عند العذاب والمصيبة والفضيحة والخبر الغريب العجيب، وهي كلمة جزع وتحسر، فهم يطلبون حضور الويل بعد تنزيله منزلة من ينادي لأن هذه عادة المولول المتحسر، أي هذا أوانك ووقتك فاحضر.

وذكر الفعل« كنا » باعتبار ماضيهم البغيض وللدلالة علي تأصل الظلم بنوعيه فيهم وارتضاعهم له منذ الصغر وفطامهم عليه.

« فمازالت تلك دعواهم حتي جعلناهم حصيدا خامدين »:

واسم الإشارة يرجع إلي قولهم« ياويلنا إنا كنا ظالمين »، واسم

الإشارة اسم مازال إذهي من أخوات كان، و« دعوي» خبر، وهو الإعراب الأظهر والأوضح.

والدعوي بمعني الدعوة يقال: دعا دعاء ودعوة ودعوي ومنه قوله تعالي في شأن أهل الجنة« دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين(١).

و« جعل» بمعني صير، و« حصيدا» مفعول ثان، والحصيد: الزرع الذي جف ثم حصد وجز بالمنجل أو بآلة ما، وهو فعيل بمعني مفعول يستوي فيه الواحد وغيره، فهي كلمة تلازم الإفراد والتذكير، و« خامدين» حال. ويجوز أن تكون الكلمتان في موقع المفعول الثاني كما يخبر عن المبتدأ بخبرين وأكثر، أي جعلناهم جامعين للأمرين معا، وهذا كقولك: جعلت هذا الشيء حلوا حامضا، أي جعلته جامعا لهما.

والخمود والهمود بمعني واحد، وقيل إن الهمود يدل علي الفتور والضعف الشديد، أما الخمود فيدل علي عدم الحركة أصلا، يقال همدت النار إذا ضعفت وسكن لهبها، ويقال خمدت النار إذا ذهبت وصارت ترابا باردا.

وفي الآية الكريمة تشبيه بليغ خذفت منه أداة التشبيه.

ومعني الآية الكريمة: فمازالت المقولة المذكورة للكفرة ياويلنا...» دائرة علي ألسنتهم، يرددونها ويكررونها طيلة الركض، إلي أن حل

---

١ - سورة يونس عليه السلام ١٠

العذاب بهم ونزل، وصيرهم الله أمواتا خامدين لاحراك بهم ولا حياة فيهم،

وكانوا كالزرع اليابس الجاف المجزوز المحصود بالآلة، وكالنار الهامدة الخامدة، ولم يغن عنهم من الله شيئا دعاؤهم علي أنفسهم وإقرارهم بظلمهم وقت نزول العذاب بهم، فقد حق عليهم سوء الخاتمة، وجرت عليهم سنة الله في الكفرة، كما قال:« ... فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسرهنا لك الكافرون»(١).

وفي هذه الآيات الكريمة المذكورة إشارات وتلميحات بنصر الله لرسوله وحبيبه محمد صلي الله عليه وسلم وإعلاء دينه، وانتقامه له من أعدائه المكذبين به، وبيان لقدرته المقتدرة علي إهلاك الكفرة به والإتيان بقوم آخرين مغايرين لهم كما قال:« ... إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وماذلك علي الله بعزيز»(٢)،« إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله علي ذلك قديرا»(٣)، « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم»(٤).

١- سورة غافر ٨٤ -٨٥

٢- سورة إبراهيم عليه السلام ١٩-٢٠ وسورة فاطر ١٦-١٧

٣- سورة النساء ١٣٣

٤- سورة محمد صلي الله عليه وسلم أو سورة القتال ٣٨

الله منزه عن اللعب واللهو

أحق بالثناء والحمد

قال الله سبحانه وتعالي:

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين(١٦) لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين(١٧) بل نقذف بالحق علي الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون(١٨) وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون(١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون(٢٠) »:

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله لما هدد كفار مكة وخوفهم بذكر القري الكثيرة التي قصمها وقصم أهلها وبين أن اعترافهم بذنوبهم لم يغن عنهم منه شيئا بين في هذه الآيات أنه لم يهلكهم عبثا ولعبا، وإنما أهلكهم عدلا ومجازاة علي كفرهم، وأنه لم يخلق شيئا عبثا ولا مصادفة أو سفاهة أو تسلية، لتنزهه عن العبث واللعب واللهو وغير ذلك مما يتصف به غيره من خلقه، وأن الحق هو الغالب والمنتصر دائما، أما الباطل فهو زاهق.

وفي ذلك رد علي الكفرة الواصفين الله بأوصاف هو منزه عنها.

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين »:

و« ما » نافية، والنفي مسلط علي« لاعبين »، و« لاعبين » حال لازمة وتقدير الكلام: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما حال كوننا

لاعبين.ولا يصح أن يكون النفي مسلطا علي« السماء والأرض وما بينهما » لفساد المعني.

والخلق معناه الإيجاد والتقدير، فالله خلق السماء والأرض وسواهما من غير مثال سبق، ولذا وصف نفسه بأنه بديع السماوات والأرض.

وأل في السماء للجنس وقدمت علي الأرض لعظمها وشرفها وشرف من فيها وما فيها، وفيها من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة الكثير والكثير الذي يبهر أولي الألباب وأولي النهي.

وبين كلمتي السماء والأرض وجه بلاغي يعرف بالطباق وهو محسن بديعي.

واللعب: الفعل الذي لايقصد به مقصد صحيح، ويدفع إليه الجهل وإرضاء النفس حين تميل إلي العبث، ولا يترتب عليه جلب منفعة أو دفع مضرة.

واللعب من ألوان الباطل وأشكاله، ويرادفه العبث، وضده الجد(١).

وقد رد الله تعالي في آيات أخري علي الكفار اعتقادهم الباطل في الخلق فقال:« وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا »(٢)« وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون»(٣)،« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون، فتعالي الله الملك الحق... »(٤).

١- أنظر المفردات للراغب ص٤٥٠ والبحر المحيط لأبي حيان ج٦ص٣٠٢

٢- سورة ص ٢٧

٣- سورة الدخان ٣٨ - ٣٩ ‏‏ ٤- سورة المؤمنون ١١٥ - ١١٦

وكان من دعاء المؤمنين أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلي جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض قولهم:

« ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك »(١).

« لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين »:

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أنها مقررة ومؤكدة لمضمون الآية السابقة« وماخلقنا السماء والأرض ... إلخ.

وجاءت الجملة شرطية مبدوأة ب« لو » علي سبيل الفرض والجدل.

واللهو: الترويح عن النفس بعمل لاتقتضيه الحكمة ولا يتناسب مع الجد ويشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، تقول: لهوت بكذا ألهو به لهوا، ولهيت عن كذا إذا تشاغلت به عن الجد.

واختلف المفسرون في المراد به هنا: فقيل إنه الولد بلغة اليمن، وقيل إنه الزوجة، وقيل إنه الجماع كما قال امرؤ القيس(٢):

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهوأمثالي

ولا تنافي بين الأقوال الثلاثة بل بينهما تلازم، فالولد يأتي من الزوجة بالجماع، ثم إن بيت امرىء القيس ليس نصا في أن المراد باللهو الجماع، وكل واحد من الأمور الثلاثة المذكورة يستروح به ويكني بالكلمة عنه.

١- سورة آل عمران ١٩١ .

٢- مجمع البيان للطبرسي ج٧ص٦٧ وروح المعاني للآلوسي ج١٧ص١٩

والأولي أن يقال إن اللهو كل مايشغل ويتلهي به عن الجد، وفي أوله وصدارته الولد بدليل قوله تعالي:« لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفي مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار»(١)، وقوله:« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ... الآية(٢)، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهي المرتبة الأولي ذات الأولوية بالتقديم في التفسير.

قال الراغب: اللهو: كل مابه استمتاع، ومن قال أراد الله- باللهو المرأة والولد فتخصيص لبعض ماهو من زينة الحياة الدنيا التي جعل لهوا ولعبا اهـ(٣).

ومعني« من لدنا »: من عندنا من الملأ الأعلي من الملائكة أو الحور العين.

ومعلوم أن الله منزه عن اللهو، ولم يتخذه من الملأ الأعلي فكيف يتخذه من الملأ الأسفل، وهذه عقيدة صرحت بها الآية، ف« لو» حرف امتناع لامتناع، أي يمتنع وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها، أي امتنع اتخاذ اللهو من الملأ الأعلي لامتناع إرادة الله أن يتخذ لهوا لتنزهه وتقدسه عن ذلك.

فالآية الكريمة من باب تعليق المحال علي المحال إذ وقوع ذلك يتنافي مع الحكمة الإلهية والتنزه الرباني، ثم إن الولادة لاتكون إلا مع المجانسة والمخالطة، والله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

١- سورة الزمر ٤ ٢- سورة المؤمنون ٩١

٣- انظر المفردات للراغب ص ٤٥٥.

وذكر الإرادة في قوله« أردنا » يفيد المبالغة في التنزه والتعالي، والمبالغة في حق الله حقيقة كما عرفت من قبل، أي مجرد إرادة اتخاذ اللهو ممتنع ومستحيل فكيف يقع الإتخاذ.

وزاد الآية مبالغة في التنزه والتقديس ذكر«إن» في قوله« إن كنا فاعلين» دون غيرها من الأحرف، وهي« إن» الشرطية، وجوابها يفهم من سياق الآية، ويجوز أن تكون بمعني النفي كقوله تعالي:« وإن أدري لعله فتنة لكم ... الآية(١)، أي ماكنا فاعلين.

والآية ترد علي كفار مكة الذين زعموا أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله كما قال تعالي موبخا الكفرة:« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون»(٢)،« أفأصفاكم ربكم بالبنين وإتخذ من الملائكة إناثا انكم لتقولون قولا عظيما »(٣)،« فاستغتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون، ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفي البنات علي البنين، مالكم كيف تحكمون»(٤)، وغيرها من الآيات البينات.

كما ترد علي اليهود الذين زعموا أن عزيرا ابن الله، وعلي النصاري الذين زعموا أن المسيح ابن الله، فهي تخبر بعمومها عن اعتقادهم وترد عليهم رغم أنها آية مكية في سورة مكية.

١- سورة الأنبياء عليهم السلام ١١١
٢- سورة الزخرف ١٩
٣- سورة الإسراء ٤٠
٤- سورة الصافات ١٤٩/١٥٤

« بل نقذف بالحق علي الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصغون »:

« بل » للإضراب الإنتقالي، والقذف معناه: الرمي والإلقاء بقوة وسرعة أي رمي شيء بشيء ثقيل.

و« الحق » هو الإسلام وقيل القرآن، وقيل الأدلة النيرة الساطعة القوية، وقيل غير ذلك.

و« الباطل » هو الكفر، وقيل الشيطان، أو الجبث والطاغوت، وقيل الشبهات والمزاعم، ونحو ذلك.

ولا تعارض بين الأقوال في تفسير الحق وتفسير الباطل فبين معاني الحق المذكورة تلازم، وبين معاني الباطل السابقة تلازم.

وبين كلمتي الحق والباطل طباق، وفي كلمة نقذف» استعارة تصريحية تبعية بأن يقال: شبه رمي الباطل بالحق بقذف شيء بشيء بجامع الإصابة وتحقيق الضرر، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه واشتق منه« نقذف» علي سبيل الإستعارة التصريحية التبعية، وهي تصريحية للتصريح بالمشبه به، وتبعية لأنها في مشتق وهو الفعل المضارع.

وذكر« علي» يفيد علو الحق علي الباطل وتمكنه منه تمكن المستعلي من المستعلي عليه.

« فيدمغه» أي يصيبه في دماغه ومقتله ويترك أثرا دالا علي ذلك، فالباطل شبه بإنسان أصيب في مقتله بجامع التأثر والضعف في كل ثم

حذف المشبه به واستعير لازم من أهم لوازمه وهو الدماغ علي سبيل الإستعارة بالكناية.

والدمغ في الأصل: كسر الشيء الرخو الأجوف، يقال: دمغه أي شجه حتي بلغ الدماغ كما يقال: كبده أي أصاب كبده، ورأسه أي أصاب رأسه، ودمغ من باب قطع.

والقذف والدمغ يستعملان في الأصل في الأجسام ثم استعيرا هنا للمعاني، فالمراد بالدمغ هنا: القهر والإهلاك والإزالة.

و« إذا » فجائية، وذكرها يدل علي كمال المسارعة في محو الحق للباطل ومحقه(١).

والضمير« هو » يرجع إلي الباطل، وكلمة« زاهق» أي زائل ومضمحل. من قولك: زهق يزهق زهوقا، فالفعل من باب سمع وضرب.

ومجيء الكلمة« زاهق» اسم فاعل يفيد المبالغة، فالباطل لضعفه ووهنه يزهق نفسه بنفسه.

وهذه الجملة القرآنية الكريمة تصور الحق والباطل في صورة حسية رائعة رائقة، مؤثرة متحركة، تهز النفوس، وتشد القلوب، وتستولي علي المشاعر، فالحق قذيفة تندفع وتنطلق بسرعة مذهلة، وتهوي علي الباطل فتشق أم رأسه، وتقمعه وتمحقه.

وهذا يفيد ويؤكد أصالة الحق وعمقه ومتانته، وقوته وثباته

١- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٦٠ وروح المعاني للآلوسي ج١٧ص٢٠.

وصلابته، وضعف الباطل ووهنه وذلته، وانكساره وضحالته.

وإذا ظهر الباطل في فترة من الفترات فظهوره مؤقت ولفترة قليلة، كسحابة صيف أو فقاقيع ماء، ويكون ذلك بسبب تقصير من أهل الحق وأصحابه، أو يكون ابتلاء وإختبارا من الله لهم، ليراجعوا أنفسهم ويحاسبوها، ويمحصهم ويستبين الخبيث من الطيب« .. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»(١).

والخطاب في قوله« ولكم الويل مما تصفون»: لأهل مكة ومن علي شاكلتهم من الكفرة الذين يفترون علي الله وعلي رسوله الكذب.

وفي جملة« لكم الويل» قصر طريقه تقديم ماحقه التأخير.

والويل: العذاب الشديد المؤلم، وقيل إنه واد في جهنم يهوي الكافر فيه سبعين خريفا، ولو وضعت فيه جبال الدنيا لا نماعت وذابت من شدة حره واندلاع لهبه ولفحه.

والجملة خبرية وفيها معني الإنشاء لأنها دعاء عليهم بالسوء والعذاب الأليم المهين.

ويجوز أن تكون« من» في قوله« مما» سببية أو تعليلية، وأن تكون« ما» موصولة أو مصدرية أو نكرة موصوفة.

وحذف مفعول« تصفون» لمراعاة فواصل الآيات، وللإيجاز ولإفادة

١- سورة الرعد ١٧

العموم والشمول، أي تصفون الله ورسوله ووحيه، ولتذهب النفس في تقديره كل مذهب، ولاتساع مجال الفكر والنظر في القرآن الكريم.

- وحذف متعلق الوصف للأغراض السابقة.

- فالله جل وعلا يبين لنا في هذه الآيات أنه ماخلق السماوات المرفوعة والأرض الموضوعة ومابينهما من أصناف وأنواع المخلوقات كالملائكة والحيوانات والجمادات والحوادث الكونية الكثيرة وغيرها مما لا يمكن حصره عبثا أو مصادفة أو تسلية، وإنما خلق كل شيء بإتقان وحكمة، لفوائد دينية وحكم ربانية ومنافع دنيوية، فكل شيء مخلوق بتقدير العزيز العليم الحكيم الخبير، وأنه منزه ومتعال عن أي لعب ولهو وعن كل وصف سيء يجول بخواطر الكفرة، أو يجوب في قلوبهم، أو يجري في أذهانهم، لأنه هو الحق المبين، ولا يصدر عنه إلا الحق، وأن مايدعون من دونه هو الباطل، وأن الحق ثابت راسخ، كالطور الشامخ، قوي لا نظير له، ولا صحيح إلا هو، وأن الباطل ضعيف هزيل يضمحل ويذوب ويزول في مواجهة الحق« قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب، قل جاء الحق وما يبديء الباطل ومايعيد »(١)،« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »(٢).

ولكل الكفرة الوعيد الشديد، والعذاب الأليم المديد، لوصفهم الله ورسوله ووحيه بما لايليق، ولايؤيده نقل أو عقل أو واقع.

« وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لايفترون »:

١- سورة سبأ ٤٨ - ٤٩ — ٢- سورة الإسراء ٨١

ووجه ارتباط هاتين الآيتين بما قبلهما أن الله بعد أن بين تنزهه عن النقائص والمماثلة للحوادث وقوة الحق وضعف الباطل، وتوعد الكفرة بالويل والنكال بين أن كل الكائنات والمخلوقات مملوكة له وفي قبضته، وأن الملائكة تثني عليه الثناء الدائم بلا كلل ولا ملل، فإن كفر به بعض أهل الأرض فكل أهل السماء يسبحون بحمده ويقدسون له.

وفي جملة« له من في السماوات والأرض» قصر طريقه تقديم ما حقه أن يؤخر، وهو قصر إفراد لأنه رد علي مشركي مكة الذين اتخذوا له شركاء، أي له وحده من في السماوات والأرض خلقا وملكا وملكا ولا شريك له .

واللام الجارة في قوله « له» تفيد الإختصاص والملكية.

وذكر العقلاء هنا بكلمة« من» لأنه إذا ملك العقلاء ذوي الفهم والعقل والقدرة علي التصرف والتفكير واختصوا به فملكيته لغير العقلاء من باب أولي.

أو أن الآية خاصة بالعقلاء وذكر الله غيرهم في أيات أخري والقرآن الكريم يفسر ويوضح بعضه بعضا.

أو أن « من» تستعمل في العقلاء وغيرهم و« ما » تستعمل أيضا في غير العقلاء وفي العقلاء وجاء ذلك في القرآن الكريم(١)، و« من» في الآية للعموم.

١- تستعمل« من» كثيرا في العقلاء، وقد تستعمل في غيرهم كقوله تعالي في سورة النور:« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي علي بطنه ومنهم من يمشي علي رجلين ومنهم من يمشي علي أربع» الآية ٤٥. وتستعمل« ما » كثيرا في غير العقلاء، وقد تستعمل في العقلاء كقوله تعالي في سورة النساء« ... فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع ... الآية ٣.

أو أن الجملة من باب التغليب أي تغليب العقلاء علي غيرهم لأن العقلاء هم المقصود الأول والمجال لهم لأن المقام مقام اعتقاد وتعقل، وللتناسب بين هذه الجملة وبين الجملة اللاحقة وهي قوله:« ومن عنده لا يستكبرون إلخ.

والمقصود ب« من عنده»: الملائكة، وإفرادهم بالذكر رغم أنهم داخلون في جملة« وله من في السماوات والأرض» من باب ذكر الخاص بعد العام للدلالة علي علو شأنهم ورفعة مكانتهم وبيان صفات من صفاتهم الشريفة، وسمات من سماتهم المنيفة.

واختلف العلماء في تفسير العندية:

فيري السلف الصالح رحمهم الله ورضي عنهم أن العندية عندية مكان لأن الله مستو علي عرشه استواء يليق به، ولا يصح أن نمثل أو نكيف أو نعطل، وإنما نؤمن بالآية ونظائرها ونمرها كما وردت مع تنزيه الله عن النقائص والمماثلة للحوادث.

ويري الخلف أن العندية عندية رتبة ومكانة ومنزلة وعلم أي المقربون ذوو المكانة العليا من ربهم المعلومون له.

« ولا يستحسرون» من حسر البعير إذا تعب وكل وأصابه الإعياء، ومنه قوله تعالي:« ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير»(١)، والفعل من باب قعد، وذكر السين والتاء يفيد المبالغة أي

١- سورة الملك ٤

المبالغة في الوصف مثل الاستكبار والإستنكار، والمبالغة هنا في النفي لا في المنفي أي لا يقع حسور منهم أبدا.

وجملة« يسبحون ... إلخ يجوز أن تكون مستأنفة أو خبرا لمن أو حالا.

ومعني:« لا يفترون»: لايضعفون ولا يسأمون . يقال: فتر فلان يفتر فتورا إذا هدأ أو سكن بعد حدة.

فالملائكة الكرام في ثناء دائم علي الله لا يأنفون ولا يتضجرون ولا يكلون ولا يملون ولا يتوقفون.

وهذه الأوصاف للملائكة لا تتعارض مع الوظائف والأعمال التي كلفهم الله بها، ولا تتنافي مع الأيات والأحاديث التي تفيد دعاءهم واستغفارهم للذين آمنوا، ودعاءهم علي الكفار ولعنهم لهم ، لأن الملائكة يلهمون التسبيح والثناء علي الله كما نلهم نحن النفس، فكما أن كلا من التنفس وطرف العين لا يعطلنا عن أعمالنا فكذلك ثناؤهم علي الله لا يعطلهم عن أعمالهم، فهو سجية فيهم وطبيعة.

ولأن دعاءهم للمؤمنين ودعاءهم علي الكافرين يعد من قبيل العبادة والثناء علي الله، فهم دعوا الله للمؤمنين واستغفروه لهم ولجأوا إليه وشكروا لهم إيمانهم الحق بالله، وشكروا الله علي توفيقه لهم، ودعوا علي الكافرين بالعذاب الشديد، ونقموا منهم لكفرهم بالله وجحدهم لنعمه.

أو أن لكل ملك ألسنة كثيرة كما أن له أجنحة كثيرة، بعضها يثني

علي الله بما هو أهله، وبعضها يدعو للمؤمنين ويستغفر لهم، وبعضها يدعو علي الكافرين ويلعنهم.

أو أن التسبيح- كما قال الإمام الآلوسي- كالحضور والذكر القلبي الذي يحصل لكثير من السالكين وهذا لا يمنع من قيامهم بالأعمال الظاهرة التي كلفوا بها.

وكونهم يسبحون الليل والنهار لايستلزم أن يكون عندهم في السماء ليل ونهار لأن المراد إفادة دوامهم علي التسبيح علي الوجه المتعارف(١).

ثم إن هذه المسألة من الأمور الغيبية، والواجب الإيمان بها، والأولي كلة العلم بالكيفية إلي الله تعالي.

وبين كلمتي الليل والنهار طباق، وقدم الليل علي النهار لأنه الأصل والنهار منسلخ منه.

وذكر الأوصاف السابقة للملائكة تنفي ولديتهم لله، وتثبت تنزه الله عن الولدية والصاحبة، لأنه أثبت عبوديتهم الدائمة له، ولا أحد يستعبد ولده أو صاحبته.

وفي الآية الكريمة تعريض بالذين يستكبرون عن عبادة الله التي خلقهم لها وكلفهم بها، ويعدلون عنها إلي عبادة غيره من مخلوقاته العاقلة وغير العاقلة.

١- انظر روح المعاني للآلوسي ج١٧ص٢٢

وبما تقدم تتجلي لنا قدرة الله العظيمة المقتدرة، وإتقانه وإحكامه لخلقه أجمعين، وإبداعه وهدايته لهم، وتنزهه عن كل ألوان العبث واللعب واللهو وسائر ما يشغل ويلهي، فهو سبحانه الغني الحميد، ولا تأخذه غفلة ولا سنة ولا نوم زمنا ما.

وتتجلي أيضا قوة الحق وعظمته وسلطانه، وضعف الباطل وضعته وانكساره وامتهانه، وأشكال الوعيد وأنواعه للمتمسكين به.

ويتبين ملك الله التام، وتصرفه المطلق في كافة خلقه، وهو لا يتصرف إلا التصرف الحق الحكيم، المبني علي الحكم الربانية العظيمة، وأحقيته بالثناء الدائم عليه، والتمجيد المستمر له، من أشرف وأسمي مخلوقاته، بلا كلل ولا ملل ولا توقف، وهم ملائكته الكرام، عليهم أزكي السلام.

إبطال الشرك وإثبات التوحيد
والعبادة لله وحده

قال الله جل جلاله وعم نواله:

« أم إتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون(٢١) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون(٢٢) لا يسأل عما يفعل وهم يسألون(٢٣) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون(٢٤) وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(٢٥) »:

ومناسبة هذه الآيات الكريمة لما قبلها: أن الله لما بين تنزهه عن اللعب واللهو، وثناء الملائكة الكرام عليه ثناء دائما بلا كلل ولا توقف، بين هنا بالأدلة تفرده بالإلهية والربوبية وتنزهه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله.

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون»:

و« أم» هي المنقطعة التي بمعني بل والهمزة، والإستفهام للتعجب والتوبيخ وإنكار الوقوع، وواو الجماعة تعود إلي مشركي مكة، و« آلهة» مفعول به، وجاء نكرة وجمعا لإفادة التحقير والتكثير والتنويع، وقد اتخذ كفار مكة اللات والعزي ومناة وهبل وغيرها من الأصنام آلهة من دون

الله. ولا يشترط أن يكون الإله المتخذ صنما فقد يكون حجرا(١) أو بشرا(٢) أو بقرا أو شجرا(٣) أو نارا(٤) أو حيوانا(٥) أو أهواء(٦) أو غير ذلك من المخلوقات، بل توجد في عصرنا الحاضر في بعض البلاد آلهة تصنع وتباع في الأسواق كما تباع السلع مثل الهند والفلبين وأندونيسيا وغيرها. ولكل إله ثمنه وفق أهميته ومادته التي صنع منها.

وزاد الآلهة تحقيرا وصغاراقوله تعالي:« اتخذوا » ووصفها بقوله« من الأرض» وبقوله« هم ينشرون».

فالله ينكر علي الكفرة اتخاذهم وصنعهم آلهة يعبدونها من دونه ويلجأون إليها وهي لاتملك لنفسها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فكيف تملك ذلك لغيرها.

ومن سوء التصرف والإسفاف وانحطاط الفكر أن بعض البشر اتخذوا معبودات هي دونهم في المكانة والمنزلة كما عرفت، فكيف يعبد الفاضل المفضول، إن هذا لشيء عجاب؟

والجار والمجرور« من الأرض» متعلق باتخذوا أو صفة لآلهة، ومن للإبتداء أو للتبعيض، ووصفت الآلهة بهذا الوصف لأنها مصنوعة من معادن وأحجار وأخشاب وغيرها من الأرض ولأنها تعبد في الأرض، قال

١- كما كان الحال عند قوم نوح عليه السلام وكفار مكة وغيرهم ٢- كما عند اليهود والنصاري حيث قال اليهود عزيز ابن الله وقال النصاري المسيح ابن الله، واتخذت طائفة من الهند أغاخان إلها وعبدوه من دون الله. ٣- كما يوجد في الهند فإنهم يعبدون البقر وبعضهم يعبد أنواعا من الشجر. ٤- كما عند المجوس ٥- بعض الناس في بعض البلاد إلي الآن يعبدون بعض الحيوانات وبعض الزواحف كالثعابين وغيرها. ٦- قال تعالي:« أفرأيت من إتخذ إلهه هواه» سورة الجاثية ٢٣ « أرأيت من إتخذ إلهه هواه ...» سورة الفرقان ٤٣

إبراهيم عليه السلام لقومه: أتعبدون ماتنحتون، والله خلقكم وما تعملون»(١).

ومعني« هم ينشرون»: يحيون الموتي للحساب، من أنشر إنشارا، ونشر نشورا، والفعل من باب قعد، والجملة صفة أخري لآلهة، وهذه الجملة هي محل الإنكار علي الكفار وتجهيلهم والتشنيع عليهم لا نفس الإتخاذ فإنه واقع لا محالة، والكفار لم يدعوا صراحة أن آلهتهم تملك إنشار الموتي وإحياءهم وبعثهم ولكنهم حين ادعوا لها الإلهية لزم أن يكون من صفاتها هذه الصفة فكأنهم ادعوها لها ووصفوها بها.

والذي يملك ذلك في الحقيقة والواقع هو الله وحده، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام للنمروذ:« ربي الذي يحيي ويميت»، فلما ادعي النمروذ هذه الدعوي ورأي إبراهيم سوء فهمه وفساد فطنته وأفن عقله أفحمه إبراهيم بقوله:« إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب»، وكانت النتيجة والنهاية أن بهت الذي كفر، وألقم في فمه الحجر، ولم ينبس ببنت شفة.

وذكر الضمير« هم» للتنبيه علي كمال مباينة حال الآلهة للإنشار الموجبة لمزيد الإنكار(٢).

وفي الكلام الكريم التفات من الخطاب إلي الغيبة حيث قال تعالي للكفار« ولكم الويل مما تصفون» ثم قال عنهم« أم اتخذوا آلهة ... إلخ.

١- سورة الصافات ٩٥ - ٩٦

٢- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٦١

ونكتته الخاصة توبيخ الكفار وتقريعهم وبيان إعراض الله عن مخاطبتهم لأنهم ليسوا أهلا لها.

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ..»:

وهذه الآية مستأنفة مؤكدة للإنكار الموجود في الآية السابقة، وألف التثنية تعود إلي السماوات والأرض في قوله« وله من في السماوات والأرض» باعتبارهما نوعين متقابلين.

والجار والمجرور« فيهما» متعلق بكان، والمراد بالكون فيهما: التمكن البالغ من التصرف والتدبير لشئون الكون وتولي أموره، وليس المراد به التمكن والإستقرار فيهما.

و« إلا» بمعني غير أي تفيد مغايرة من بعدها لما قبلها، وهي صفة لآلهة ظهر إعرابها علي الكلمة الكريمة التي بعدها لكونها علي صورة الحرف مثل أل الموصولة الداخلة علي اسم الفاعل.

ولا يصح أن يكون لفظ الجلالة بدلا من آلهة لأن البدل علي نية حذف المبدل منه وإقامته مقامه، وإعرابه بدلا يفضي إلي فساد المعني ومخالفة الحق والواقع إذ يصير المعني:« لو كان فيهما الله لفسدتا»، وحاش لله عن ذلك.

ولأن الجملة موجبة والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب كقوله تعالي:« ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك»(١).

١- سورة هود عليه السلام ٨١.

ولا يجوز نصبه علي الإستثناء لأن الجمع إذا كان منكرا والجملة مثبتة لا يجوز أن يستثني منه عند محققي النحاة وأكثرهم لأنه لا عموم له ولا استغراق فيه بحيث يدخل فيه المستثني ويصح الإستثناء، ولأن اللفظ الكريم نقل نقلا متواترا بقراءة الرفع ولا قراءة غيرها، ثم إن القول بالإستثناء يفسد المعني إذ يصير هكذا: « لو كان فيهما آلهة ليس الله معهم لفسدتا »، ويكون مفهوم الجملة المذكورة هكذا: « لو كان فيهما آلهة معهم الله فلا يحصل الفساد »، ولا شك أن هذا المعني باطل عاطل عن الحق بداهة.

وذكرت كلمة« آلهة » جمعا: للمشاكلة لورودها إثر إنكار اتخاذ الكفار آلهة(١) ، ولإفادة المغايرة: مغايرة الله لكل منهم أعني فردا فردا فردا ....

ومعني فساد السماوات والأرض: اختلال نظامهما وانعدام النفع من سائر المخلوقات، أي لو كان في السماوات والأرض إله غير الله مستقل عنه أو مشترك معه(٢) لفسدت السماوات والأرض وخربتا وهلك من وما فيها، وإذا فسدتا بوجود إله غيره ففسادهما بتعدد الألهة من باب أولي، ومن ثم قال تعالي: لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا »(٣)،« ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقي في جهنم ملوما مدحورا »(٤)،« ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو »(٥) « ولو اتبع

١- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٦١. ٢- زعم بعض اليونانيين والفرس أن في الكون إلها للخير وإلها للشر، وإلها للنور وإلها للظلمة.. إلخ أما كفرة مكة فقد اعتقدوا وجود الله وأنه الخالق للأشياء، فهو الخالق للسماوات والأرض والمسخر للشمس والقمر والرزاق والمنزل الماء من السماء والمحي والمميت وغير ذلك كما جاء في سورة يونس عليه السلام وسورة العنكبوت وغيرهما لكنهم زعموا أن له شركاء في التدبير وأن الأصنام شفعاء لهم عنده وتقربهم إليه زلفي ، ومن ثم كانوا يطوفون بالكعبة قائلين في التلبية: « لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك »، وهو تضارب منهم واضطراب في العقيدة ٣-) سورة الإسراء ٢٢-٣٩ ٥- سورة القصص ٨٨.

الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن... »(١)

وبيان ذلك: أنه لو كان معه إله آخر فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا في التصرف في الكون وتولي تدبيره، فإن إتفقا علي إيجاد شيء أو إعدامه أو تحريك شيء أو تسكينه فإن إرادتيهما وقدرتيهما تتجهان إلي شيء واحد، وهذا لا مبرر له ولا داعي إليه إذ تكفي إرادة واحدة وقدرة واحدة، فتوجه الإرادتين والقدرتين من إلهين إلي شيء واحد معناه أن بكل منهما نقصا وأن كلا منهما يكمل الثاني فلا يصح أن يكون كل منهما إلها، ومعناه أيضا اجتماع مؤثرين علي مؤثر- بفتح الثاء- واحد وهذا باطل.

وإن إختلفا بأن كان أحدهما يريد فعل شيء والآخر لايريد فعله كالصحة والمرض، وتحريك شيء وتسكينه، والسعادة والشقاوة..إلخ فإن اجتمعت الإرادتان وتحقق متعلق القدرتين لزم التناقض والتضارب، وإلا فإن من تغلب إرادته ويوجد ويتحقق أثر قدرته يكون إلها. والآخر لايكون إلها.

ولم نعلم ولن نعلم في هذا الملكوت أحدا ذا صفات عليا وأسماء حسني إلا الله تعالي، وما أوجب أحد عليه- بحق- شيئا، أو منعه من شيء، وصدق الله العلي العظيم في قوله:« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»(٢)، «قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم

١- سورة المؤمنون ٧١

٢- سورة فاطر ٢

رحمة »(١)، « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »(٢).

أضف إلي ماتقدم أنه لو كان معه إله لوجد التغالب والتنازع والتشاحن بينهما وحاول كل منهما أن يستقل بالعرش وأن تكون له الكلمة والسلطة والعلو والهيمنة علي الآخر- كما يوجد بين حكام البشر- ولذا قال تعالي: « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلي ذي العرش سبيلا، سبحانه وتعالي عمايقولون علوا كبيرا »(٣)، « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم علي بعض سبحان الله عمايصفون »(٤).

ويسمي هذا الدليل علي إثبات الوحدانية عند أهل الكلام ببرهان التمانع، وسمي به لأن الآلهة لو تعددت لمنع كل واحد الآخر من تنفيذ مراده وتحقيق متعلق قدرته.

و« لو » حرف إمتناع لإمتناع، و« لو » و« إن » و «من» من أدوات الشرط- مع وجود الفارق بينها- وتذكر كل منها في الجمل الشرطية التي تقال أحيانا علي سبيل الفرض والجدل والتنازل، ولا يلزم من ذكرها وقوع معني الجملة وتحققه.

أي امتنع فساد السماوات والأرض لامتناع وجود آلهة غير الله، فنحن نري السماء مرفوعة بغير عمد، محكمة البناء، وهي هي منذ أن

١- سورة الأحزاب ١٧ | ٢- سورة يونس عليه السلام ١٠٧

٣- سورة الإسراء ٤٢ - ٤٣ | ٤- سورة المؤمنون ٩١

خلقها الله علي الرغم من أنها قبة واسعة مترامية لا يعلم حدودها وسمكها إلا الله، وفيها من الملائكة الأعداد الهائلة التي يجعلها تئط وحق لها أن تئط وفيها الشمس والقمر والنجوم والكواكب الكثيرة الكبيرة، وكل يسبح في فلكه ويعرف مداره ومهمته لايزاحم شيء شيئا، ولا يمتنع عن أداء وظيفته قال تعالي:« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»(١).

ومابالك بالسماوات الست الأخري ومافيها ومن فيها ومابالك بما بعدها مما لا يعرف كنهه وحقائقه ودقائقه إلا الله جل وعلا.

ونري الأرض ممهدة ذلولا تنبت مايلقي فيها من بذور، وفيها السبل والفجاج، والبحار والأنهار، وهي معلقة جامعة بين التكور والانبساط، مفلطحة عند خط الإستواء، مشحونة بالآيات والعبر، المحتاجة إلي طول التأمل والتفكر من البشر، قال تعالي:« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»(٢).

---

١ - سورة يس ٣٧ - ٤٠

٢- سورة يس ٣٣ - ٣٦

وكل شيء فيهما خلقه الله وسواه، وأحسن خلقه وهداه وكل واحد من خلقه شاهد ناطق بأنه الإله الواحدالمعبود بحق، ويستحيل أن يكون له شريك في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

وخصت السماوات والأرض بالذكر لعظمهما ولأنهما ظرف فاذا فسدتا واختل نظامهما وخربتا كان فساد وخراب كل المخلوقات من باب أولي لأنها مظروفة فيهما وحياة الخلائق متوقفة علي صلاحهما وانتظام شأنهما.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله وأحسن مثواه:

هناك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود... فالكون قائم علي الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعا، وينسق بين أجزائه جميعا، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد.

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ولتعددت النواميس تبعا لها ... ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الإضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق... هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس.

وإن الفطرة السليمة ... لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لافساد في تكوينه ولا خلل فسي سيره ١هـ باختصار(١).

١- انظر في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ج٤ص٢٣٧٣.

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون »:

والفاء لترتيب مابعدها علي ماقبلها، و« سبحان» اسم مصدر، والفعل سبح، يقال: سبح تسبيحا وسبحان، ويقال: سبح سبحا، وهو من السبح بمعني البعد، يقال: سبح فلان في الماء إذا غاص فيه وبعد، ويقال: سبحت الفرس إذا جرت وبعدت عن العين، وهذه الكلمة« سبحان» تعرب مفعولا مطلقا وهي كلمة استأثر الله بها واختصت به، فلا يصح أن يقال سبحان فلان ولا سبحان فلانة، وتقال عند التعجب والإنبهار بشيء ولتنزيه الله عن النقائص.

وجاءت في القرآن الكريم بصيغة الماضي والمضارع والأمر والمصدر للدلالة علي تنزيه الله عن النقائص والمماثلة للحوادث في كل وقت وحين واستحقاقه للتنزيه التام.

وقد نزه الله نفسه في الأزل قبل أن ينزهه خلقه لأن تنزيهه لنفسه أكمل وأجل من تنزيه خلقه له، ولعلمه أن خلقه مهما نزهوه فلن يوفوه حقه، ومع هذا طالبهم بتنزيهه حتي يؤجروا ويثابوا وتعود عليهم المنفعة.

وقد حمد نفسه في الأزل قبل أن يحمده خلقه لأن حمده لنفسه أكمل وأتم من حمد خلقه له، ولعلمه أن خلقه مهما حمدوه فلن يطيقوا حمده ولن يوفوه حقه، ورغم هذا أمرهم بحمده والثناء عليه ليؤجروا ويثابوا وينالوا الرضا ويحظوا بالقبول والرضوان.

فالحمد ثناء عليه بالجلال والكمال، والتسبيح تنزيه له عن النقص والمثال.

- ومثل كلمة« سبحان» في إفادة التنزيه كلمة« تبارك» و« تعالي»

- وفي ذكر لفظ الجلالة إظهار في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم ولتربية المهابة وإدخال الروعة(١).

« رب العرش»: أي مالكه والمهيمن عليه، والعرش: جسم عظيم كبير لا يعلم حدوده إلا الله وهو مركز تدبير العالم، وهو غير الكرسي، وقيل هو الكرسي، والسماوات والأرضون بالنسبة إلي الكرسي كحلقة في فلاة قال تعالي:

« وسع كرسيه السماوات والأرض»(٢)، والكرسي بالنسبة إلي العرش كحلقة في فلاة.

ومادام الله رب العرش ومالكه فهو مالك ورب لكل ماحواه:« قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء»(٣)، وهو مستو علي عرشه استواء يليق بجلاله وكماله.

- وفي ذكر الإلهية والربوبية والجمع بينهما في الجملة ترهيب للكافرين من عذابه، وترغيب للمؤمنين في ثوابه.

---

١ - انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود حـ ٦ ص ٦٢.

٢ - سورة البقرة ٢٥٥ ٣ - سورة الأنعام ١٦٤.

ففي الجملة الكريمة بيان لتنزه الله وتعاليه وبعده التام عن النقائص والمماثلة للحوادث وعمايصفه به الكفار لأنه رب العرش العظيم و« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »(١).

« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »:

وهذه الآية مستأنفة تقرر وتؤكد قوة عظمته وعزة سلطانه الباهر فلا أحد من مخلوقاته يسأله معترضا أو يحاسبه، لأنه لا توجد سلطة عليا ولا من هو أكمل وأعلي منه، ولا من يضاهيه أو يدانيه حتي يسأله عن أفعاله، أو يكلفه ويحاسبه، فهو القاهر فوق عباده، ولا معقب لحكمه، ومع هذا لا يفعل شيئا إلا بإتقان وحكمة وتقدير، ولا يظلم أحدا ما ظلما ما، بل هو الغني الغفور ذو الرحمة.

أما خلقه فهم دونه وهم يكلفون ويسألون عن كل أقوالهم وأفعالهم ويحاسبون في الآخرة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، قال تعالي:« فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون »(٢)،« فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين »(٣)،« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٤).

وقال الله في الحديث القدسي:« .. ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير

---

١ - سورة الشوري ١١ ٢ - سورة الحجر ٩٢ / ٩٣

٣ - سورة الأعراف ٦ - ٧ ٤ - سورة الزلزلة ٧ - ٨

ذلك فلا يلومن إلا نفسه(١).

وجاءت الجملة الأولي« لا يسأل» مبنية للمفعول لإفادة العموم أي لا يسأله أحد ما في أي وقت ما لا في الدنيا ولا في الآخرة عما يفعله من إعزاز وإذلال، وهداية وإضلال، وإسعاد وإشقاء، وصحة ومرض، وحوادث كونية ...إلخ وإدخال أناس الجنة بغير حساب، والعفو عن بعض العصاة، وإدخال البعض النار، وغير ذلك من أمور الآخرة وآحوالها.

والجملة الكريمة لاتنفي ولا تمنع من البحث والتنقيب عن الحكمة في تشريع الله للأحكام، ووقوع بعض الظواهر الكونية ، وثبات نظمها، بقدر الطاقة البشرية للإستفادة والإستنباط وزيادة العلم والوقوف علي علل الأشياء وأسبابها، وقد سأل الملائكة ربهم من قبل فقالوا في شأن آدم عليه السلام:« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»(٢).

وإن الممنوع والمنهي عنه هو السؤال بقصد الاعتراض لأن فيه إساءة أدب وجحدا للنعم، وهو دأب الحمقي الجاهلين.

وفي الآية الكريمة وعيد شديد للكفرة وتهديد وترهيب.

وبين الجملتين« لا يسأل»« يسألون» طباق السلب، فهما مثل قوله تعالي:« وهو يجير ولا يجار عليه»(٣).

١- هو حديث طويل رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن رسول الله صلي الله عليه وسلم انظره فس صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصدقة والأداب باب تحريم الظلم ج٥ ص ٤٤٠.

٢- سورة البقرة ٣٠

٣- سورة المؤمنون ٨٨

« أم اتخذوا من دونه آلهة ..... ».:

و« أم» المذكورة هنا هي « أم» السابقة، والكلام عنها: الكلام.

و« من دون» جار ومجرور متعلق بمحذوف حال، وهذا الجار والمجرور- الظرف- هو في الأصل صفة لآلهة، ومعروف في النحو أن الصفة إذا قدمت علي الموصوف أعربت حالا كقول الشاعر(١):

لمية موحشا طلل   يلوح كأنه خلل

إلا في باب الإضافة.

وهذه الجملة« أم اتخذوا من دونه آلهة» كررت للتفنن في التعبير ولترسيخ معني الإنكار وتثبيته في القلب وتمكينه في الذهن لأنها مسألة عقدية بل الإعتقاد بالتوحيد الخالص أول المسائل العقدية، فتكرار المعني مع التغير في العبارة والتفنن في الكلام يزيده بهاء وسناء وتلألأ وجلاء، ويجدد نشاط السامع ويشد انتباهه ويتمكن المعني في قلبه فضل تمكن، وفيه استفظاع لشأنهم واستعظام لكفرهم وإظهار لجهلهم، فالإعادة لا تخلو من الإفادة

ويجوز أن تكون الجملة تأسيسية: فالجملة الأولي أنكرت علي الكفار اتخاذهم آلهة من الأرض هم ينشرون، أما الجملة الثانية فأنكرت عليهم اتخاذهم من دون الله آلهة مطلقا، أو أن الإنكار في الجملة الأولي من حبث العقل، وفي الجملة الثانية من حيث النقل.

---

١ - الشاعر هو كثير عزة والبيت مذكور في كتب النحو في باب الحال انظر شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام بتحقيق فضيلة الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد.

وكونها تأسيسية لا يمنع أنها تأكيدية، فلا تنافي بين المعنيين، ولا تضارب بين الجملتين، فكل منهما تكمل الأخري وتزيدها وضوحا وبيانا.

« هاتوا برهانكم» أمر والأمر هنا للتعجيز والتبكيت وليس لكلمة« هاتوا » فعل ماض أو مضارع.

أي أحضروا دليلكم وحجتكم علي أن مع الله آلهة، أو علي صحة اتخاذكم آلهة من دونه.

ولما كان المستدل عليه مستحيلا كان الحصول علي الدليل مستحيلا كذلك، ومن ثم قلت إن الغرض من الأمر هنا التعجيز والتبكيت أي إثبات عجز الكفرة في الحصول علي دليل يثبت أن مع الله آلهة، أو يثبت صحة اتخاذهم آلهة من دونه.

وفي إضافة البرهان إليهم مع أنهم لا يملكون برهانا ما ولا يعلمونه لتبكيتهم وتوبيخهم والتهكم بهم.

وهذه الجملة« هاتوا برهانكم » تفيد أن لادعوي بدون دليل، وأن الإسلام دين العقل والفكر والتأمل والنظر ويدعو إلي التحرر من ربقة التقليد الأعمي وأغلاله البغيضة.

« هذا ذكر من معي وذكر من قبلي»:

وهذه جملة مستأنفة، واسم الإشارة يرجع إلي مقدر في الذهن يفسره ويوضحه الخبر، فهذه الجملة مثل قوله تعالي:« هذا خلق الله »(١).

١- سورة لقمان ١١ ولقمان عبد صالح حكيم وليس نبيا علي القول الراجح.

وقوله« ذكر من» من إضافة المصدر لمفعوله، وجاء اسم الإشارة للقريب لبيان عظمة القرآن وقربه من أيدي الناس وسهولة حفظه وتداوله.

أي هذا القرآن كتاب وواعظ أمتي أمة الإجابة وأمة الدعوة، وكتاب وواعظ من أوتوا الكتاب من قبلي ومنهم من عاصروا عهدي ورسالتي ففيه أخبار الأمم السابقة وأحوالها، فهل تجدون فيه دليلا علي أن مع الله آلهة، أو تجدون فيه دليلا علي صحة اتخاذكم من دونه آلهة.

أو هذا القرآن كتاب وواعظ أمتي بنوعيها، وهذا كتاب من أوتوا الكتاب من قبلي كالتوراة والزبور والإنجيل، فهل تجدون في واحد منها دليلا علي أن مع الله آلهة. أو دليلا علي صحة اتخاذكم من دونه آلهة.

فكلمة« ذكر» تطلق علي القرآن العظيم وغيره كما علمت من قبل، والمراد« من معي» أمة رسول الله صلي الله عليه وسلم، ويجوز أن يراد بهم المؤمنون به خاصة لأن الظاهر أن المراد بالمعية في الجملة معية إيمان ومتابعة.

والمراد ب« من قبلي» الأمم السابقة فأحوالهم وعواقبهم مذكورة في القرآن الكريم.

« بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون»:

« بل» للإضراب الإنتقالي، أي أن أكثر الكفار لا يعلمون الحق تمام العلم ولا يفكرون فيه حق التفكير، ولا يعطونه أهمية ولا يعلمون إلا

ظاهرا من الحياة الدنيا (١) ومن ثم أعرضوا عن الوحي والإ ستعداد ليوم الحساب وغفلوا عن الآخرة جميعها وولوا مدبرين و«من جهل شيئا عاداه».

وكلمة« أكثر» جاءت في القرآن كثيرا مضافة إلي الكفرة ومضافة إلي الناس، وهذا يفيد أن الكفار أكثر من المؤمنين في كل زمان، وهذه حقيقة وواقع قرره القرآن الحكيم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا.

كما يفيد أن بعضهم سيعلم الحق وسيهديه الله إلي الإسلام ويشرح صدره للإيمان، وهو أمر واقع سجله التاريخ، ونشاهده أو نقرأ ونسمع عنه في حياتنا: نقرأ أو نسمع أن فلانا اعتنق الإسلام أو أن مجموعة من الناس اعتنقت الإسلام.

أما أكثر الناس فهم كفرة كما عرفت وصدق الله في قوله:« وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله»(٢)

وهذه الآية الكريمة تبين بجلاء أن لا دليل مع الكفار من النقل أو العقل علي صحة منهجهم في الإعتقاد وسلامة مسلكهم في التدين.

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون»:

وهذه الآية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، وارتباطها بما قبلها

---

١ - قال تعالي في سورة الروم عن الكفرة «... ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» ٦ - ٧.

٢ - سورة الأنعام ١١٦.

واضح لأن الآيتين تصرحان بأن الرسالات السماوية والكتب الإلهية تدعو إلي وحدانية الله وعبادته وحده لاشريك له، ومعروف أن أصول الدين وأسس العقيدة واحدة فيها جميعها، وأن الإختلاف بينها في بعض التكليفات والفروع وفق ظروف كل أمة وكل بيئة، ومن ثم كانت رسالاتهم مؤقتة ومحلية، والله أعلم بأحوال خلقه وبما يصلحهم« ألا يعلم من خلق وهو الطيف الخبير»(١).

وفي هذه الأية قصران طريق كل منهما النفي والإستثناء:

الأول: في جملة: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه .

والثاني في جملة:« لا إله إلا أنا».

وبين كلمتي : «أرسلنا - رسول» جناس اشتقاق .

وحرف الجر« من» في قوله« من قبلك» للإبتداء، وذكره يفيد التوغل في الزمن الماضي والعمق البعيد في أغوار التاريخ، أي من عهد آدم عليه السلام إلي عهد محمد صلي الله عليه وسلم.

وحرف الجر« من» في قوله« من رسول» صلة أو سيف خطيب وأفاد ذكره الإستغراق والشمول، وكلمة« رسول» تقع مفعولا به منصوب بفتحة مقدرة علي آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الصلة.

ومن المعروف أن كلمة« الرسول» إذا جاءت وحدها في نص تضمنت كلمة« النبي» وأن كلمة النبي إذا جاءت وحدها في نص تضمنت كلمة

١- سورة الملك ١٤

« الرسول»، أما إذا جاءتا معا في نص واحد كان بينهما فرق، فهما لفظان إذا افترقا اجتمعا، وإذا إجتمعا افترقا.

فهما يشبهان كلمتي: الإسلام والإيمان، ونحوهما.

وقرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف« نوحي» بصيغة المبني للفاعل، وقرأ باقي القراء« يوحي» بصيغة المبني للمفعول أو لما لم يسم فاعله(١).

وجملة« أنه لا إله إلا أنا فاعبدون»: تقع مفعولا به علي القراءة الأولي، وتقع نائب فاعل علي القراءة الثانية لأنها جملة قصد لفظها وصارت في حكم المفرد أي هذا الكلام، أو هذا المعني.

وجاء الفعل «نوحي» بصيغة الفعل المضارع ولم يأت بصيغة الماضي لإفادة تكرار الوحي ولاستحضار الصورة في ذهن القاريء والمستمع كأن كلا منهما حاضر ومعاصر نزول الوحي عليهم، ففي الفعل حكاية الحال الماضية.

وحذف مفعول « اعبدون» لمراعاة فواصل الآيات ولوضوح العلم به وللإيحاء والإشارة بمسارعة الخلق في عبادة الله تعالي.

وجاء الأمر بصيغة الجمع لأن كلمة« رسول» نكرة مسبوقة بنفي ففيها معني الجمع ولأن كل رسول مع أمته أمروا بعبادة الله وحده.

١- انظر حجة القراءات لأبي زرعة ص٤٦٦ والنشر لابن الجزري ج٢ص٢٩٦

ومعني العبادة: الخضوع التام لله والتذلل له وطاعته في ما أمر أو نهي مع محبة وتعظيم، ومن هذا المعني قولهم: طريق معبد أي مذلل.

وليست العبادة في الإسلام مقصورة علي أداء الفرائض الأربع محصورة فيها وإنما المقصود بها معناها الواسع ومفهومها الشامل أي امتثال كل ما أمر الله به مع محبة له ونية صادقة، واجتناب كل ما نهي الله عنه في رضا وسكينة ومحبة لله وتعظيم.

فالله تبارك وتعالي يبين لنا أن كل نبي من النبيين وكل رسول من المرسلين منذ أن اصطفي أولهم وهو آدم عليه السلام إلي أن اختار خاتمهم وهو محمد صلي الله عليه وسلم أوحي إليه أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له، وأنه الإله المعبود بحق، ولا يصح أن يعبد غيره، ولا أن يستعان بسواه، قال تعالي:« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت»(١)، وقال لرسوله صلي الله عليه وسلم:« واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»(٢).

١- سورة النحل ٣٦
٢- سورة الزخرف ٤٥

الله منزه عن الولد
والملائكة عباده

قال الله جل شأنه:

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون(٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون(٢٧) يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضي وهم من خشيته مشفقون(٢٨) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين(٢٩) »:

وهذه الآيات الكريمة مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا: فالله سبحانه لما بين في الآيات الماضية تنزهه عن النقائص والأغيار وتفرده بالإلهية والربوبية والعبادة، وأن ذلك مقرر وثابت في سائر الكتب الإلهية والرسالات السماوية، بين هنا تنزهه عن الولدية التي ابتدعها له بعض الكفرة فقال« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ... الآيات.

ولهذه الآيات سبب نزول وهو أن بعض مشركي مكة وحيا من قبيلة خزاعة(١) وبني سلمة وبني مليح وجهينة زعموا أن الملائكة بنات الله وأولاده، ورضي بقولهم وأشاعه كفار مكة، فأنزل الله هذه الآيات المخبرة عن قيلهم والرادة عليهم جميعا.

وأخرج ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة بن دعامة قال:

١- قبيلة خزاعة كانت تعيش في ضاحية من ضواحي مكة.

قالت اليهود إن الله- تبارك وتعالي - صاهر الجن فكانت منهم الملائكة(١).

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا »:

فواو الجماعة في كلمة« قالوا » ترجع إلي كفار مكة وأمثالهم ممن قالوا ذلك .

وذكرت في الآية كلمة« الرحمن» وفق قول الكفرة، أو أن هذه الكلمة ذكرت توبيخا وتقريعا للكفار وإشعارا لهم بأنهم لم يقابلوا الرحمة والإحسان بالحمد والعرفان، وإنما قابلوا آلاء الله ونعمه ورحماته بالجحود والنكران.

قال العلامة أبو السعود: في ذكر« الرحمن» إبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ١هـ(٢).

و« الولد» اسم جمع ومفرده مثله أي قالوا اتخذ الله أولادا، ويطلق الولد لغة وشرعا علي كل مولود ذكر أو أنثي، لكن عرف الناس خص كلمة« ولد» بالذكر، وخص كلمة« بنت» بالأنثي، حتي اشتهر ذلك لدي الناس وصار حقيقة عرفية.

١- انظر جامع البيان لابن جرير ج١٧ص١٦، وفتح القدير للشوكاني٣ص٤٠٦. وما قاله اليهود أشار الله إليه في سورة الصافات فقال:« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا.. الآية ١٥٨ ولا يلزم من هذه الرواية مدنية الآية، فالآية مكية في سورة مكية، ويقصد قتادة رحمه الله أن الاية بعمومها تشمل قول اليهود فليس قولهم سببا لنزول الآية لتكون مدنية، ولم يأت في الرواية ذكر للسببية.

٢- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٦٣.

وهذه الجملة الكريمة تشمل بعمومها قول المشركين: الملائكة بنات الله، وقول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصاري: المسيح ابن الله.

ورد الله عليهم بعد اخباره عنهم بقوله:

« سبحانه بل عباد مكرمون... »:

وهذه الكلمة« سبحانه» ليست من مقولة الكفرة، وإلا لكان كلامهم متناقضا متعارضا، وإنما هي وما بعدها من قول الله الرحمن ردا عليهم.

و« بل» حرف إضراب انتقالي ويتضمن إبطال نسبة الولد إلي الرحمن، وكلمة« عباد » خبر لمبتدأ مقدر يفهم من سياق الكلام، ولم يذكر للعلم به، أي بل الملائكة عباد، ونكرت كلمة« عباد » وجمعت: للتعظيم والتكثير والتنويع، و« مكرمون» اسم مفعول، وقرنت الكلمة بإسكان الكاف وفتح الراء المخففة، وقرئت بفتح الكاف وفتح الراء المشددة وهي قراءة شاذة والعبرة بالقراءة الأولي المتواترة.

أي أن الملائكة عباد الله المنعمون والمبجلون والمقربون منه والمفضلون علي كثير من خلقه الصالحين.

ثم ذكر الله صفات أخري لهم تدل علي عبوديتهم له فقال:

« لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»:

و« لا » نافية، ويسبقون» من السبق، ومعناه في الأصل: التقدم في السير علي سائر آخر، وكثر إطلاقه مجازا علي التقدم في كل عمل، وعلي السبق في القول أي التكلم قبل الغير.

وكلمة« بالقول» جار ومجرور، وأصلها: بقولهم» حذف الضمير وأنيبت عنه اللام اختصارا وتجافيا عن تكراره(١).

وأصل الجملة: لا يسبق قولهم قوله إلا أنه سبحانه أسند السبق إليهم منسوبا إليه تنزيلا لسبق قولهم قوله منزلة سبقهم إياه للتنبيه علي مزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه ورضاه سبحانه(٢).

أي لا يصدر من الملائكة قول قبل قوله، ولا يتكلمون إلا بإذنه، فقولهم بعد قوله وإذنه، وهم لا يعملون عملا ما إلا بأمره وإذنه خاصة.

وهذا يدل علي التزامهم التام، ووقوفهم عند حدودهم، وعلي تكليفهم بأعمال يقومون بها ووظائف يؤدونها، وعلي غاية الطاعة لله وكمالها، ونهاية الأدب معه وتمامه، وجلال مراقبتهم لربهم.

وإذا كان الملائكة لا يقدمون قولهم علي قول الله ولا يسبق قولهم قوله، ولا يساويه، وهم في غاية الإنضباط والإلتزام في الأقوال والأفعال وهم من هم في المنزلة والمكانة عند ربهم فكيف يتجرأ ويتجاسر بعض البشر في بعض الفرق المنتسبة إلي الإسلام وهم دون الملائكة بمراحل علي تقديم قولهم علي قول الله أو علي قول رسوله صلي الله عليه وسلم، ويمتطون متن العقل الجامح، ويغترون بأرائهم وأفكارهم وهي متباينة، وعقولهم متفاوتة في الذكاء والثقافة والمشرب، بل قلوبهم ونياتهم كذلك،

١- ٢- انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ص٦٣.

إن هذا مسلك غريب، ومنحي عجيب.

قال تعالي:« ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم»(١).

وقال صلي الله عليه وسلم:« لا يؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢).

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم»:

أي يعلم الله علما شاملا محيطا أقوال الملائكة وأفعالهم وأسرارهم وأحوالهم كلها صغيرها وكبيرها متقدمها ومتأخرها في الدنيا والاخرة، فكل شيء محصي لهم وعليهم معلوم له سبحانه لا يخفي عليه شيء.

وذكر الفعل بصيغة المضارع للدلالة علي استمرار علمه تعالي بهم.

وذكرت«ما» لإفادة العموم والشمول، وفي الجملة الكريمة طباق، ويلزم من العلم المجازاة.

« ولا يشفعون إلا لمن ارتضي»:

والشفاعة لغة الوسيلة والطلب، واصطلاحا: طلب الخير من الغير للغير.

١- سورة الحجرات ١ ٢- انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان باب حب الرسول صلي الله عليه وسلم من الإيمان ج١ص١٢، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل ج١ص٢١٩، ومقدمة سنن ابن ماجه باب في الإيمان ج١ص٢٦ وهو مروي عن أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما، ومحبة رسول الله محبة ذاته ومحبة كل مانزل عليه من الوحي، وتحقيق ذلك بالتأسي والإقتداء به قولا وفعلا مع تمام الرضا وحسن النية وصدق الإخلاص

وشفاعة الملائكة في الدنيا هي الإستغفار لعصاة المؤمنين كما قال تعالي:« ... ويستغفرون للذين آمنوا.... الآيات(١)، ويشفعون لعصاتهم يوم القيامة.

ولا تكون الشفاعة منهم أو من غيرهم في الآخرة للعصاة إلا بشرطين:

الأول: وجود أصل الإيمان في العصاة وموتهم علي الإسلام.

الثاني: رضا الله تعالي وإذنه.

فالآيات القرآنية والآحاديث النبوية التي تثبت الشفاعة في الآخرة تثبتها لعصاة المسلمين بالشرطين السابقين، والتي تنفي الشفاعة تنفيها عن الكافرين بأنواعهم لعدم تحقق الشرطين، ولا تناقض بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

قال تعالي:« من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه»(٢)،« مامن شفيع إلا من بعد إذنه»(٣)، « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا»(٤).

وقال صلي الله عليه وسلم: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(٥).

١- سورة غافر ٧-٩ ٢- سورة البقرة ٢٥٥ ٣- سورة يونس عليه السلام ٣ ٤- سورة طه ١٠٩ ٥- انظر سنن الترمذي أبواب صفة القيامة باب ١١ ج٤ص٤٥ وقال عنه حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وسنن أبي داود كتاب السنه باب في الشفاعة ج٤ص٢٣٦، وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة ج٢ص١٤٤١، ومسند أحمد ج٣ص٢١٣ وهو مروي عن أنس وجابر رضي الله عنهما.

وقال تبارك اسمه في شأن الكفرة وحالهم في الآخرة: « فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم »(١)، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »(٢).

ولذلك أخطأ المعتزلة ومن سار في ركابهم وحادوا عن الحق والصواب حين نفوا الشفاعة في الآخرة لعصاة المسلمين وأهل الكبائر، ولم يفرقوا بين عصاة المسلمين وجموع الكافرين.

وجاءت الجملة الكريمة بصيغة الفعل المضارع باعتبار الحاضر والمستقبل ولإفادة التكرار، وبصيغة النفي والإستثناء لإفادة الحصر، وفاعل« إرتضي» ضمير مقدر يعود علي الله، والمفعول مقدر،

والتقدير: .. إلا لمن ارتضي الله الشفاعة له.

قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك بن مزاحم- رحمه الله- وغيرهما من السلف إن المراد به: من قال لا إله إلا الله.

« وهم من خشيته مشفقون »:

أي هم من شدة خوفهم من الله وهيبتهم له مرتعدون وجلون لا يأمنون مكره، أو هم من عظيم خوفهم من الله وشدة هيبتهم له وعظيم تعظيمه وتوقيره خائفون وجلون من أن يقع تقصير منهم- بدون قصد- في تلك الخشية أو في عمل ما.

وجاءت الجملة اسمية لإفادة الدوام والإستمرار أي دوام واستمرار

١- سورة الشعراء ١٠٠ - ١٠١

٢- سورة المدثر صلي الله عليه وسلم ٤٨

خشيتهم لله وإشفاقهم منه في الدنيا والآخرة.

وقوله« من خشيته» ظرف متعلق بقوله« مشفقون» و« من» تعليلية،وقدم الظرف لمراعاة فواصل الآيات وللدلالة علي القصر وطريقه تقديم ماحقه أن يؤخر.

وكلمة« خشيته» من إضافة المصدر لمفعوله أي من خشيتهم له.

والخشية: خوف مع مهابة ومحبة وتعظيم للمخشي منه وهو الله تعالي.

والإشفاق: خوف مع مهابة وتعظيم ومحبة وأخذ الحيطة والحذر والإعتناء.

ففي الكلمتين معني الخوف بيد أن بينهما فرقا ولا تكرار في الجملة.

واجتمعت الكلمتان أيضا في قوله تعالي:« الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون»(١)،« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون»(٢).

وجاءت الخشية وحدها في آيات أخري كثيرة مثل قوله تعالي:

« إنما يخشي الله من عباده العلماء»(٣)،« إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»(٤).

١- سورة الأنبياء عليهم السلام ٤٩ ٢- سورة المؤمنون ٥٧

٣- سورة فاطر ٢٨ والقراءة المتواترة في الجملة الكريمة بنصب لفظ الجلالة ورفع العلماء، أما القراءة المذكورة في بعض الكتب برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء علي أن في الخشية مجازا فهي قراءة موضوعة مغيرة للمعني مخلة بالمقصود من الجملة ، ونسبت إلي الإمام أبي حنيفة زورا وكذبا ٤- سورة الملك ١٢.

ومادة الإشفاق يختلف معناها باختلاف حرف الجر الآتي بعدها، فإن جاء بعدها حرف الجر« علي» كان معناها الرحمة والرأفة والحنو والعطف كقولك: أشفقت الأم علي ولدها، وإن جاء بعدها حرف الجر« من» كان معناها توقع المكروه والخوف والرهبة، ومنه هذه الجملة الموجودة معنا في الآية، ومنه أيضا قوله تعالي:« إنا عرضنا الأمانة علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها »(١).

ومما يدل علي شدة خشية الملائكة لله وإشفاقهم منه وخوفهم بطشه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم رأي جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج وهو بالملأ الأعلي ساقطا ملقي كالحلس البالي من خشية الله(٢).

وكل هذه الأوصاف المذكورة للملائكة تدل علي أنهم عباد لله وليسوا أولادا له فهو الغني الحميد، ذو الجلال والكمال، المنزه عن الولدية والوالدية وعن الشريك والند:

« قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد »(٣) «ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين»:

١- سورة الأحزاب ٧٢ ٢- أخرجه ابن خزيمة بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، وإسناده قوي وغلط ابن الجوزي في تضعيفه، وأخرجه الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيره بأسانيدهم عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه آخرون بأسانيدهم عن أنس رضي الله عنه: انظر الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر وهو في نهاية الكشاف للزمخشري ص١١٠. والحلس بكسر الحاء وسكون اللام: كساء رقيق يكون تحت البرذعة أو تحت الرحل، ويطلق علي مايبسط في البيوت تحت الحسر من الثياب انظر الصحاح للجوهري ج٣ص٩١٩ والقاموس المحيط للفيروز ابادي ج٢ص٢٠٧

٣- سورة الإخلاص .

والمقصود ب« من » الشرطية وغيرها من الضمائر المذكورة في الآية: الملائكة، ولم يقل أحد منهم إنه إله من دون الله، وحين يسألهم الله يوم القيامة عن بعض الكفرة:« أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، يجيبونه بقولهم:«سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون»(١)

وإنما قال الله هذه الجملة الشرطية علي سبيل الفرض والتقدير والجدل وإفحام الخصم فهي مثل قوله تعالي: « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين»(٢)،« لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»(٣)،« ... ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون»(٤).

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين»(٥).

فلا يلزم من النطق بمثل هذه الجمل الشرطية وجود معناها وتحققه كما علمت من قبل.

وذكرت« من» الشرطية دون« إن» لإفادة العموم.

وقيل إن الضمير في كلمة« منهم» وغيرها يعود إلي الخلق، وقد إدعي الإلهية والربوبية فرعون موسي- رمسيس الثاني- والنمروذ،

١- سورة سبأ ٤٠ - ٤١ ٢- سورة الزخرف ٨١ ٣- سورة الزمر ٦٥
٤- سورة الأنعام ٨٨ ٥- سورة الحاقة ٤٤ - ٤٧

ووسوس إبليس للناس ونصب نفسه مشرعا ذا سلطة حاكمية، وكذلك الأحبار والرهبان، قال تعالي:« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ... الآية(١).

فكل من إدعي الإلهية أو الربوبية أو شرع في الدين مالم يأذن به الله وجعل لنفسه سلطة الحاكمية يندرج تحت عموم الآية الكريمة المذكورة ويفحم بها.

فالمقصود بالجملة الشرطية تفظيع أمر الشرك وبيان سوء عاقبته وسوء مغبته ونهايته، وتعظيم شأن التوحيد وبيان حسن عاقبته وجزيل مثوبته.« والعاقبة للمتقين»(٢)« للذين أحسنوا الحسني وزيادة»(٣)

وهذه الصفات الحميدة المذكورة في الآيات المجيدة صفات الملائكة كما عرفت، ولولا سبب النزول الوارد في هذه الآيات وتصديرها بقوله:

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا » لجاز تطبيقها بعمومها وشمولها علي كافة الأنبياء والمرسلين كذلك، فكل النبيين والمرسلين عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .... إلخ

واسم الإشارة« ذلك» يعود إلي« من» أي القائل منهم إنه إله من دون الله، وجاء للبعيد لأن المدعي للإلهية ادعي أمرا عظيما بعد به عن

١- سورة التوبة ٣١ ٢- سورة القصص ٨٣ ٣- سورة يونس عليه السلام ٢٦ والحسني: الجنة، والزيادة: رؤية المؤمنين لربهم في الجنة.

رحمة الله وطرد من ساحة رضاه، وصار ممقوتا مسخوطا عليه مستحقا لدخول جهنم وبئس المصير والقرار.

« كذلك» الكاف بمعني مثل وهي صفة لموصوف مقدر أي نجزي الظالمين جزاء مثل ذلك.

والمراد بالظالمين في الآية: الكافرون لأن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهؤلاء وضعوا الكفر موضع الإيمان، قال تعالي:« والكافرون هم الظالمون»(١)، وقدعرفت فيما مر معني الظلم ونوعيه وتحقيق هذه المسألة بما يغني عن إعادة الكلام فيها مرة أخري، والله الموفق.

فالآيات الكريمة أثبتت للملائكة الكرام سبع صفات سنية ونعوت مرضية، ودلت علي عبوديتهم لله وملكيته لهم، وطاعتهم المطلقة له في الأقوال والأفعال كما هو شأن وديدن العبيد المخلصين المطيعين لسيدهم، ومن ثم كانوا في منازل عالية، ومقامات سامية، ولا يصح شرعا ولا عقلا أن يكونوا أولادا لله، ولا أن يكون له ولد ما: لأن الولد لا يصح تملكه لوالده واستعباده، ومعروف أن الخلق جميعا ملك لله وعباده.

ولأن الولد يشبه والده في بعض الصفات، ويخالفه في بعضها فلو كان لله ولد لكانت ذات الله مركبة وجسما، وكل مركب ممكن، فاتخاذه للولد يدل علي أنه ممكن غير واجب، وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية(٢).

١- سورة البقرة ٢٥٤

٢- انظر مفاتيح الغيب للرازي ج٢٢ص١٥٩.

ولأن الولد يحتاج إليه والده ويفتقر إليه لنقصه وضعفه، والله جل وعلا قوي وغير محتاج إلي أحد فهو القوي العزيز، والغني الحميد، وواجب الوجود، ولذا قال في سورة يونس عليه السلام في معرض الإخبار عن جناية من جنايات الكفرة وزعم من مزاعمهم الشيطانية الإبليسية:

« قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون علي الله ما لا تعلمون، قل إن الذين يفترون علي الله الكذب لا يفلحون، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون»(١).

ولأن الله أوعد من يقول منهم إنه إله من دونه، فلو كان له ولد ما أوعده بجهنم وهو يعلم كنه عذابها وشدة لفحها وإيلامها.

وهذه الصفات المذكورة السابقة تفيد أيضا أن الملائكة الكرام مكلفون بأقوال وأفعال، وأنهم معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فسلام الله عليهم أجمعين، وعلي سائر النبيين والمرسلين.

١- سورة يونس عليه السلام ٦٨ - ٧٠.

أدلة كونية علي جلال الله وكماله وتفرده بالإلهية والعبادة

قال الله سبحانه وتعالى:

« أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون(٣٠) وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون(٣١) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون(٣٢) وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون(٣٣):

وعلاقة هذه الآيات بما قبلها: أنها أدلة كونية ستة على تفرد الله بالإلهية والربوبية والعبادة وتصرفه المطلق، وعلى تنزهه عن اللعب واللهو والولد، فهى أدلة على ماسبق ذكره ومناقشته وتقريره.

« أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما »: هذا هو الدليل الأول، والهمزة فى قوله« أولم ير » للإستفهام الإنكاري التوبيخى لكل من إدعى مع الله إلها آخر، والجملة معطوفة على جملة مقدرة والتقدير: أعموا ولم يروا، أو أجهلوا ولم يروا، فالمعطوف عليه يكون من معنى المعطوف إذ يجوز أن تكون الرؤية بصرية أي رؤية بالعين، فالله أعطي الكفار الأبصار والوسائل التى من خلالها يبصرون أن السماوات والأرض كانتا مرتوقتين ففتقهما، فهو يوبخهم ويبكتهم لعدم رؤيتهم والتفاتهم إلي ذلك.

ويجوز أن تكون الرؤية علمية- قلبية- ، فالله أعطى الكفار العقول والأفهام ومكنهم من النظر والتأمل والعلم، فعليهم أن يدرسوا تاريخ خلق السماوات والأرض ليعلموا من خلال البحث والدرس أنهما كانتا مرتوقتين ففتقهما الله تعالي، فهو يوبخهم ويقرعهم لجهلهم بذلك.

وكون الرؤية هنا بصرية أو علمية متوقف على بيان معنى الرتق والفتق.

وقرأ ابن كثير« ألم ير» بغير واو بعد الهمزة وهى قراءة موافقة لبعض المصاحف العثمانية وتكون الجملة ابتداء كلام يتضمن الوعظ والتذكير ولفت النظر، وقرأ الباقون بالواو بعد الهمزة« أو لم ير» وهى موافقة لبعض المصاحف الأخرى، وتكون الواو عاطفة كما علمت، والقراءتان متواترتان ولا تعارض بينهما[1].

ولم تذكر واو الجماعة العائدة على الكفرة وصرح باسم الموصول وجملة الصلة لتسجيل الكفر عليهم، وبيان سبب عدم رؤيتهم ذلك وأن الحائل له والحامل عليه هو الكفر والتعنت، ولتكون الآية عامة شاملة للكفرة في كل الأزمنة والأمكنة، ولتستمر الآية داعية إلي العلم والتأمل فى ملكوت السماوات والأرض.

والكفر معناه: الستر والتغطية، ويقال للزارع: كافر لأنه يستر البذور

---

(١) انظر حجة القراءات لأبى زرعة ص٤٦٧ والنشر لابن الجزرى ج٢ص٣٢٣.

والحبوب فى الأرض ومنه قوله تعالى:« .... كمثل غيث أعجب الكفار نباته» الآية[1]، أى أعجب الزراع نباته، فالكافر لوث فطرته وسترها وغطاها بكفره بالله وارتكابه المعاصى وارتكاسه فيها حتى ران على قلبه ما اكتسبه وطبع الله عليه.

وجملة أن واسمها وخبرها فى محل نصب سدت مسد مفعول(يرى) إذا كانت بمعنى يبصر، أو سدت مسد مفعولى(يرى) إذا كانت بمعنى يعلم.

وألف التثنية فى كلمة« كانتا»: اسم كان وهى تعود على السماوات والأرض باعتبارهما جنسين متقابلين، وجاء نحو ذلك فى قوله تعالى:

إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ... الآية[2]، وغيرها من الآيات..

وكلمة« رتقا» خبر، والإخبار بالمصدر كما هنا يفيد المبالغة كأنهما كانتا نفس الرتق، والمصدر هنا بمعنى اسم المفعول أى مرتوقتين كالخلق بمعنى المخلوق.

ومعنى الرتق: الانسداد والالتحام والتضام من قولك: رتقت الثوب أرتقه رتقا إذا حكته وضممت قطعه بعضها إلى بعض وصارت متلاصقة متضامنة ملتحمة، ومنه يقال: امرأة رتقاء إذا كانت منسدة الفرج لايمكن

---

(١) سورة الحديد ٢٠.   (٢) سورة فاطر ٤١.

جماعها.

أما الفتق فهو ضد الرتق وبين الكلمتين طباق كالذى بين السماوات والأرض وهو محسن بديعى.

ومعنى الفتق: انفتاح الشىء ووجود فراغ بين جزئيه أو أجزائه بعد أن كان شيئا واحدا متضاما.

والفعلان رتق وفتق من باب نصر.

واختلف العلماء فى تفسير هذه الجملة وكثرت الآراء فيها، وأشهرها وأظهرها ثلاثة:-

الأول: أن السماوات كانت رتقا مصمتة لا تمطر، وكانت الأرض رتقا مصمتة لا تنبت، ففتق الله السماء بإنزال الماء منها، وفتق الأرض بإخراج النبات منها، وقال بهذا المعنى ابن عباس رضى الله عنهما حين سأله سائل، وعكرمة مولى ابن عباس وعطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم من السلف الصالح رضى الله عنهم.

والرؤية على هذا القول بصرية لأن الكفرة بل الناس جميعا يشاهدون نزول الماء من السماء وخروج النباتات بأنواعها من الأرض، والرؤية البصرية تستلزم الرؤية العلمية ولا عكس.

ورجح الإمامان الهمامان ابن جرير وابن عطية هذا القول الأول واستصوباه، لأن الناس يشهدون نزول الغيث وخروج النبات ولم يشهدوا

خلق السماوات والأرض ولا كيفيته كما قال تعالى: « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم .. »[1]، ولقوله تعالى:

« والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع »[2] أى أن السماء تعيد الماء إلى الأرض وترده، والأرض تتصدع وتتشقق لخروج النباتات، ولقوله تعالى فى نفس الآية « وجعلنا من الماء كل شىء حى » أى فتق الله السماء بنزول الماء وفتق الأرض بإخراج النبات، وبالماء الذى هو سبب لاخضرار الأرض خلق الله كل شى حى واستقرت الحياة[3].

الثانى: أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ملتزقتين كالشىء الواحد ففتقهما الله تعالى: رفع السماء وجعلها كما هى، ووضع الأرض وأبقاها كما هى، وجعل بينهما فراغا وفضاء وهواء،وقال بهذا المعنى من السلف الصالح ابن عباس رضى الله عنهما، ومجاهد والحسن البصرى وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم.

وأهل مكة وسائر الكفرة بل الناس جميعا لم يحضروا ذلك ولم يشهدوه، ومن ثم تكون الرؤية علمية، وذكرت الرؤية فى الآية دون العلم لأن هذالما كان واردا فى القرآن الكريم وهو معجزة قام مقام المرئى المشاهد، ولما كان العقل لا يمنع من التلاصق ويجوزه وكانت السماء مغايرة للأرض ولكل منهما خصائصه وصفاته كان لا بد من وجود مخصص ومدبر حكيم

---

(١) سورة الكهف ٥١. (٢) سورة الطارق ١١- ١٢.

(٣) انظر جامع البيان لابن جرير ج١٧ ص١٩ والبحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص٣٠٨.

وهو الله تعالى[1].

وقال بهذا المعنى الباحثون المحدثون: قالوا: إن باطن الأرض مرتفع الحرارة، وضعف القشرة الأرضية فى بعض المناطق يؤدى إلى وجود البراكين والزلازل، وإن القشرة الأرضية كانت ساخنة منصهرة لكنها بردت بمرور الزمن واستغرق ذلك ملايين السنين، وصارت الأرض صالحة للنبات وسكنى الحيوان والإنسان مما يدل على أن الأرض كانت ملتصقة بالسماء كما صرح القرآن.

فالله عز وجل يوبخ الكفرة فى هذا النص الكريم لعدم تأملهم وإيمانهم بأن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما وجعل بينهما فراغا واسعا ولا يملك ذلك ولا يقدر عليه إلا الله الواحد العزيز القوى الغنى المستحق للعبادة من خلقه، والمنزه عن الولدية والوالدية.

الثالث: أن السماوات كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقهما الله وجعلها سبع سماوات بعضها فوق بعض، وكانت الأرض مرتتقة طبقة واحدة ففتقهما الله وجعلها سبع أرضين بعضها تحت بعض، وقال بهذا القول من السلف كعب الأحبار والسدى وأبو صالح وغيرهم.

وفى تفسير الرتق والفتق أقوال أخرى مرجوحة كالقول بالعدم والإيجاد، والظلمة والنور، والليل والنهار، وغير ذلك.

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى ج٣ ص٩.

ويجب أن نصدق القرآن ونؤمن به وبحقائقه على سبيل الجزم واليقين وإن لم نعلم الكيفية والتفصيل، فقد آمن بها سلفنا الصالح وعلى رأسهم وفى صدارتهم الصحابة رضى الله عنهم ورحمهم، ولم تكن وسائل العلم المادى التجريبى موجودة عندهم ولا عند غيرهم، فما علموه آمنوا به، وما جهلوه آمنوا به كذلك وقالوا كل من عند ربنا، ولا يصح أن نركن إلى نظريات العلم المادى الحديث ونعول عليها فى تفسير القرآن الكريم فهو علم يصيب ويخطىء، ويقوم أحيانا على الفروض العلمية والظنون التخمينية، وصوب الباحثون بعض النظريات وأثبتوها وبعد مضى مدة من الزمن جاء غيرهم وخطأوها ونفوها أو عدلوا فيها، لأن ذلك مبنى على تقدم الآلة واختراع وسائل العلم المادية، والجهل بالشىء لا ينفى وجوده كما أن الجهل بالحكمة والفائدة لا يستلزم عدمها، وقد يكون الباحث ناقص الآلات أو قليل الفهم أو فى نفسه مرض وهوى، فتأتى نتيجة بحثه مختلة غير مطابقة للحقيقة والواقع، والفارق شاسع بين النظريات العلمية الظنية وبين الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة.

فالعبرة بما جاء به الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله تبارك وتعالى، والوحى معصوم نزل به ملك معصوم إلى رسول معصوم.

« وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون »:

وهذه الجملة تنطوى على الدليل الثانى، والجعل هنا بمعنى الخلق، و« من » للابتداء، أى أن الله خلق كل الأشياء التى فيها حياة ونمو من الماء

واختلف العلماء فى المراد به: فقيل إنه الماء النازل من السماء ولا تستغنى عنه الكائنات الحية فهو كالهواء سواء بسواء، وقال بهذا المعنى العلم الحديث، ويستثنى من ذلك الملائكة لأنها مخلوقة من النور، والجان لأنه مخلوق من نار السموم.

وقيل إن الكلام من باب المبالغة والتشبيه أى أن الكائنات الحية لفرط احتياجها إلي الماء وتغذيتها به وحبها له وعدم استغنائها وقلة صبرها عنه كأنها مخلوقة منه، فهذه الجملة تشبه قوله تعالى:« خلق الإنسان من عجل»[1]، « الله الذى خلقكم من ضعف»[2].

وقيل إن المراد به: النطفة، ويستثنى من ذلك آدم وعيسى والملائكة- عليهم السلام- والجان، وتكون الكلية المذكورة فى الآية باعتبار الأعم الأغلب.

ولا تعارض بين المعانى الثلاثة فالنطفة ترجع إلى الماء الذى يرتوى به الكائن الحى كما ترجع إلى التغذية،فالتغذية بأنواعها يتولد عنها الدم الذى تتولد منه النطفة، ولا يقدر على خلق الكائنات الحية من الماء وإعطاء كل مخلوق خصائصه وسماته التى يتميز بها عن غيره إلا الله تعالى.

إن مصدر الخلق ومادته واحدة وهى الماء ومع ذلك نرى التفاوت والتغاير بين الكائنات الحية ونرى التغاير بين التوأم مما يدل على أن الخالق

(١) سورة الأنبياء ٣٧.   (٢) سورة الروم ٥٤.

والمبدع والمميز إله واحد حكيم مطلق التصرف فى ملكه، يستحق أن يعبد وحده وأن ينزه عن الأغيار.

« أفلا يؤمنون»: جلة فعلية مصدرة بالاستفهام الإنكارى التوبيخى التعجبى، وهى معطوفة على جملة فعلية مقدرة أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون.

فالله ينكر عليهم استمرارهم فى الكفر وبقاءهم عليه وعدم إيمانهم بعد وضوح الأدلة وسطوع البراهين.

وهذه الجملة تعود إلى كل من الدليلين المذكورين فى الآية الكريمة لأن الآية ختمت بها فهى مرتبطة بكل من الجملتين السابقتين،ويجوز أن تكون مرتبطة ومتعلقة بالدليل الثانى وحده باعتباره أقرب مذكور.

« وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم »:

وهذه الجملة الكريمة تتضمن الدليل الثالث، و« جعل» يجوز أن تكون بمعنى« خلق »فتحتاج مفعولا واحدا وهو« رواسى» ويجوز أن تكون بمعنى«صير» فتحتاج مفعولين: الأول: رواسى، والثانى: فى الأرض، وكلمة« رواسى» صفة لموصوف مقدر أى جبالا رواسى، ومفردها راسية، من رسا الشىء يرسو رسوا إذا ثبت ورسخ، ووصفت الجبال بهذه الصفة لأنها راسية ثابتة مستقرة فى الأرض والله أرسى بها الأرض وثقلها.

و« أن» وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مضاف إليه مفعول لأجله

مقدر، وتقدير الكلام: كراهة أن تميد بهم، أو أن« لا » مقدرة وتفهم من سياق الكلام لعدم الالتباس، أى لأن لا تميد بهم، فالجملة المذكورة تشبه قوله تعالى: يبين الله لكم أن تضلوا »[1].

والفعل: ماد يميد ميدا: إذا تحرك الشيء واهتز، وهو من باب باع.

ولعل المفعول لأجله لم يذكر صراحة للدلالة علي سرعة الميد لو لم توجد الجبال، فعدم ذكره جعل اللفظ مطابقا للمعنى.

وذكرت« فى» ولم تذكر« على» للإفادة بأن للجبال عمقا فى الأرض فهى كالوتد المدقوق فى الأرض، جزء منه يعلو الأرض ومعظمه فى داخلها ولذا قال تعالى:« ألم تجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا »[2].

وللجبال أحجام مختلفة وألوان متباينة كما قال تعالي:« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود »[3].

فخلْق الجبال وغوصها فى أعماق الأرض وثباتها فيها ومحافظتها على القشرة الأرضية من التزحلق من فضل الله ورحمته، وكرمه ورأفته ولولا هذه الجبال لاضطربت الأرض ومادت، وظلت فى اهتزاز وتموج بمن وماعليها، وما كانت تصلح للحياة قط، فالجبال الموجودة المغروسة فيها أمسكتها وجعلتها لا تتكفأ بالخلق رغم أنها معلقة وفى دوران مستمر، وصيرتها صالحة للحياة، وهو من فضل الله وإنعامه على خلقه، قال تعالى

(١) سورة النساء ١٧٦. (٢) سورة النبأ ٦-٧. (٣) سورة فاطر ٢٧.

« والأرض بعد ذلك دحاها،أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها »[1]،« ... وجعل فيها رواسى من فوقها »[2] « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى »[3] وغير ذلك من الآيات البينات.

ووقوع بعض الزلازل لا يتعارض مع ماجاء فى هذه الآية وغيرها لأن الزلزال يقع فى أماكن محدودة من الأرض ليست شيئا بالنسبة إلى امتدادها وسعتها الهائلة ومساحتها المترامية، ولأن الزلزال إذا وقع فى مكان ما أو أمكنة لا يستمر، بل يقع فى مدة وجيزة قد تكون بضع ثوان أو دقائق ويتوقف بسرعة، وحين يقع تكون درجاته قليلة ضئيلة، كل هذا بسبب إمساك الجبال للأرض، ولولا فضل الله بوجودها لاستمر الزلزال وعمها وأزدادت درجاته فيها وما صلحت الحياة عليها.

ألا يدل خلّق الجبال بأحجامها وألوانها وانتفاع الناس بها وإمساكها للأرض على وجود الإله ذى الجلال والكمال، المنعم على خلقه العليم الكبير المتعال؟ بلى

« وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون »:

وهذه الجملة تشتمل على الدليل الرابع، وكرر الفعل« جعلنا »لأن فى هذه الجملة دليلا آخر فالمجعول الثانى غير المجعول الأول وليوفى الله مقام الامتنان والإنعام والتفضل حقه.

---

(١) سورة النازعات ٣٠- ٣٢.　　　(٢) سورة فصلت ١٠.

و« الفجاج» جمع فج بفتح الفاء مثل سهم وسهام، والسبل جمع السبيل وهى تذكر وتؤنث، وجاء تذكيرها وتأنيثها فى القرآن الحكيم.

وكلمة« فجاجا » مفعول به، وكلمة« سبلا » بدل أو عطف بيان، ويجوز أن تكون كلمة« فجاجا » حالاً لأنها قدمت على الموصوف، وكلمة «سبلا » مفعول به.

و« الفجاج»: الطرق الضيقة، والسبل: الطرق المذللة الواسعة، وقيل الفجاج: الطرق الواسعة.

وقدمت الفجاج على السبل هنا لأن المقام مقام استدلال على قدرة الله وجلاله وكماله وتصرفه المطلق، ولإعلامنا بأنه جعل فيها طرقا واسعة، أما فى سورة نوح عليه السلام فقدمت السبل على الفجاج فى قوله تعالى: « ... لتسلكوا منها سبلا فجاجا »[1] لأن المقام هناك مقام امتنان وتفضل وإنعام، ولإعلامنا بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة.

والضمير فى كلمة« فيها » يعود إلى الأرض لأن الكلام عنها، ولقوله:« فجاجا سبلا »، والفجاج والسبل الكثيرة المتنوعة كما يفهم من التنكيروالجمع تكون فى الأرض ولا تكون فى الجبال، ولأن الجبال موجودة فى الأرض وصارت منها، ففى عود الضمير على الأرض إفادة العموم.

وقيل إن الضمير يعود إلى الجبال الرواسى أى أن الله من فضله

(٣) سورة ق ٧.

(١) سورة نوح عليه السلام ٢٠.

ورحمته جعل فى كل جبل من الجبال الهائلة الضخمة فجاجا سبلا أى شقوقا وفرجا ومنافذ ومسالك متنوعة تساعد على الإنتقال من بلد إلى بلد آخر دون أن يدور الإنسان حول الجبل كله ويستغرق انتقاله وسفره وقتا طويلا، وقد هدى الله الناس وعلمهم مالم يكونوا يعلمون، واهتدوا بهذه الجملة الكريمة، فقاموا فى عصرنا الحاضر بشق طرق متنوعة فى الجبال تسرع بهم فى الإنتقال والسفر، كما قاموا بتدريج بعض الجبال وزراعتها، وكل ذلك من فضل الله وهدايته وتعليمه ورحمته.

فالله جل ذكْره يذكّر الكفرة ببعض نعمه عليهم فهو لم يكتف بإلقاء الجبال الرواسى فى الأرض لئلا تميد بهم، وإنما مهد الأرض وعبدها وأنشأ فيها طرقا ضيقة وطرقا واسعة شتى، كما أوجد شيئا من ذلك فى الجبال ليقضوا مصالحهم ويحققوا مآربهم بتمكينهم من التنقل فى جنبات الأرض والضرب فيها كيفما شاءوا وأنى أرادوا، ولا يفعل ذلك ولا يستطيعه إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

« لعلهم يهتدون» لعل للتوقع وفيها معنى الرجاء هنا، وصفة الرجاء يصف السلف الصالح الله بها مع تفويض الكيف إليه والإعتقاد بأنه منزه عن النقائص، فهم لا يمثلون ولا يعطلون ولا يكيفون، وإنما يمرون آيات الصفات كما نزلت ويؤمنون بها إجمالا.

أما الخلف فيرون أن الرجاء من جانب الخلق أى الخلق يرجون الهداية، أو أن لعل بمعنى كى أى لكى يهتدوا.

وحذف متعلق الهداية لما مر التنبيه عليه ولفت النظر إليه أكثر من مرة.

وهذه الجملة يجوز أن تتعلق بكل من الجملتين السابقتين، ويجوز أن تكون متعلقة بالجملة الأخيرة باعتبارها أقرب مذكور.

أي أكرمنا الخلق ومنهم الكفرة بجعلنا جبالا رواسى شوامخ فى الأرض تمسك بها وتتشبث فيها حتى لا تتحرك باضطراب واهتزاز وتموج، ولا يستطيع الخلق الحياة والعيش عليها، وأكرمناهم كذلك بخلقنا فى الأرض طرقا متنوعة منها المذلل المعبد الواسع ومنها ما دون ذلك، لعلهم يتوصلون من خلال النعم إلى معرفتنا حق المعرفة وقدرنا حق القدر والإيمان بالوحى والرسول صلى الله عليه وسلم، أو يهتدون إلى السير فيها وقضاء مصالحهم وتحقيق مآربهم وأغراضهم فى الحياة، وكيف تكون الحياة على الأرض لو لم تكن الجبال موجودة؟ وكيف تكون الحياة لو لم تكن الفجاج والسبل موجودة ميسرة؟ إن الإنسان لو فكر فى أى نعمة من نعم الله عليه فى نفسه أو فى الكون المحيط به لوجدها نعمة كبرى يستحق الشكر عليها ولا يوفيه الإنسان حقه ويحس بعجزه وقصوره عن الشكر التام لأن كل شكر يستوجب شكرا، فسبحان من حمد نفسه بنفسه، ونزه نفسه بنفسه.

« وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون »:

وهذه الآية الكريمة تحوى الدليل الخامس، و« سقفا » مفعول ثان، والكلام من باب التشبيه البليغ حيث لم تذكر أداة التشبيه ووجه الشبه،

أى جعلنا السماء كالسقف فهى مظلة شاسعة وقبة واسعة للأرض، وهما كالبناء المسقوف، وكلمة« محفوظا » صفة.

وحقيقة السقف: غطاء يوضع على جدران البيت أو أعمدته يستر فضاءه ويغطيه.

أى أن السماء سقف محفوظ من الفطور والتصدع والتشقق والخلل، والدليل على هذا المعنى قوله تعالى:« الذى خلق سبع سماوات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم إرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »[1].

أو محفوظ من مردة الشياطين الذين يحاولون استراق السمع والتلصص على أهل السماء، والدليل عليه قوله تعالى:« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحورا ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب»[2]، وقوله تعالى:« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » [3]، وقوله جل شأنه :« ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين[4] وقوله:« هل أنبئكم

---

(١) سورة الملك ٣-٤ . (٢) سورة الصافات ٦- ١٠. (٣) سورة الجن ٨-٩.
(٤) سورة الحجر ١٦- ١٨.

على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون»[1]. فمردة الجن يبذلون جهدهم فى الرقى جهة السماء لاستراق السمع، فيسمع الواحد منهم كلمة أو يلتقط كلمتين ويلقفهما ويهبط إن سلم من الشر ويلقى ما سمع على الكاهن الأفاك الأثيم ويزيد المارد على ماسمع أكثر من مائة كذبة كما أخبر رسول الله صلي الله عليه وسلم[2].

وقد حفظ الله السماء بالشهب- النيازك- التى تخرج بسرعة من بعض الكواكب وتنطلق بأمر الله، والشهاب شعلة نار تثقب المارد فتحرقه أو تخبل عقله.

أو محفوظ من السقوط والهوى على الأرض، فالله رفع السماوات بغير عمد ويمسكها بقدرته، والدليل عليه قوله تعالى:« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده»[3]، وقوله:« ... ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلابإذنه»[4]

وهذه المعانى الثلاثة ثابتة بالأدلة كما مر بك، ولا تعارض بينها فكلها تجتمع فى السماء وتنطبق عليها، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن وله الصدارة فى مراتب التفسير ودرجاته.

---

(١) سورة الشعراء ٢٢١/٢٢٣. (٢) انظر الحديث بطوله فى صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده ج٤ ص١٥٢ وكتاب التفسير سورة الحجر ج٦ ص١٠١ وكتاب الطب باب الكهانة ج٧ ص١٧٦ وكتاب الأدب باب قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوى أنه ليس بحق ج٨ ص٥٨ وكتاب التوحيد باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم ج٩ ص١٩٨، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ج٥ ص٨٣/٨٤. ومقدمة سنن ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية ص٧٠ ومسند أحمد ج٦ ص٨٧ والراوي من الصحابة رضي الله عنهم أبو هريرة وعائشة رضى الله عنهما. (٣) سورة فاطر ٤١. (٤) سورة الحج ٦٥.

أو محفوظ من الشرك والمعاصى وهى طاهرة مطهرة تعج بالملائكة وفيها من فيها وما فيها مما لا يعلمه إلا باريها، وهذا المعنى الرابع لا يتعارض مع المعانى السابقة فكلها تنطبق على السماء وتتحقق فيها.

« وهم عن آياتها معرضون»: وهذه الجملة الإسمية تفيد الدوام والإستمرار، أى أن الكفرة فى إعراض دائم عن آيات الله التى فى السماء، فلا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالا، ولا يرفعون إليها رأسا، ولا يستدلون على جلال الله وكماله من خلالها، قال تعالى: وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»[1]، « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون»[2].

إن السماوات مشحونة بالآيات الدالة على قدرة الله وكماله، ففيها الملائكة الذين لا يحصون عددا وتعج بهم السماوات وتئط، وكل سماء سقف للسماء التى تحتها، وكل واحدة منها مرفوعة بغير عمد، وفيها من المخلوقات والصفات مالا يعلمه إلا الله، ونجد فى السماء الدنيا السحب والرعود والبروق والكواكب والنجوم والشمس والقمر وغير ذلك، ولا يعلم عددها وأحجامها وكنهها والمسافات بينها على وجه الدقة والتفصيل إلا باريها، وكل له مداره ومنازله، ولا تزاحم بينها، ولا امتناع من أحدها عن

---

(١) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥.
(٢) سورة يونس عليه السلام ١٠١.

أداء وظيفته والقيام بمهمته.

ونرى السماء سقفا للأرض واسعا لا يعرف مقدار سعته إلا الله فهى قبة كبرى، وهى هى منذ أن خلقها الله وبناها وأحكم بناءها.

إن المهندسين المهرة حين يعزمون على بنيان قبة أو سقف يفكرون ويحارون فى التصميم: يفكرون ويحارون فى تحديد المساحة ومقدار الحديد ونوعه وكم الأسمنت ونوعه وكم الرمل ونوعه ونسبة الماء وخلط هذه الأنواع وأعداد الأعمدة الحاملة.... ثم يقدرون لها عمرا افتراضيا،وبعده أو قبله بقليل تتهالك وتتهاوى وتنهدم وتزول.

أما السماوات السبع الطباق فهى شداد، وهى هى منذ خلقها، فأين قباب البشر من قباب خالق القوى والقدر،« أفمن يخلق كمن لا يخلق »[1].

« وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون »

وتشتمل هذه الآية على الدليل السادس، والضمير يعود إلى لفظ الجلالة، وفى الجملة الكريمة قصر طريقه تعريف الطرفين، وهو قصر إفراد إضافى لأن المشركين بمكة كانوا يعتقدون أن لآلهتهم وللشركاء الذين يزعمونهم دخلا فى ذلك.

(١) سورة النحل ١٧.

وبين الليل والنهار طباق، ومع وجود الطباق والتضاد بين الكلمتين يوجد بينهما التكامل فى واقع الحياة فهما معا يكونان اليوم وأحدهما يسلمك إلى الثانى فهما ضدان متعاقبان، وقد يطلق اليوم على النهار كما قال تعالى: « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما »[1].

وقدم الليل فى الذكر على النهار لأن الليل هو الأصل والمخلوق أولا أما النهار فمنسلخ منه، ولأن فى الليل الهدوء والراحة والسكن وهذه وسائل للسعى فى النهار والإبتغاء من فضل الله ورزقه، فقدم الظرف الذى فيه الوسيلة على الظرف الذى فيه الغاية، ولأن الليل يخيم عليه الهدوء والسكون ويكون فرصة الصالحين الذين يستثمرونه ويستغلونه فى عبادة ربهم التى خلقوا لها ويناجونه ويأنسون بعبادته والتضرع إليه.

وقدمت الشمس على القمر لكبر حجمها وقوة ضوئها ولأنه يستمد نوره منها ولأن أقرب مذكور منها هو النهار فهى مرتبطة بالنهار والقمر مرتبط بالليل.

والفلك يراد به هنا المدار والممر، ويطلق على كل شىء مستدير، ومنه فلكة المغزل أى الخشبة المستديرة التى تكون فى أعلاه، وتعلوها حديدة صغيرة مقوسة قليلا يكون الخيط فيها، أي لكل واحد مما تقدم فلكه ومداره الخاص به الذى يجرى فيه ويضمه.

---

(١) سورة الحاقة ٧.

وجملة« كل فى فلك» سبعة أحرف تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها على نفس الترتيب مع خفة التركيب وروعة الألفاظ وجمال المعنى وعدم التنافر والغرابة، ومثل هذه الجملة قوله تعالى:

« ... ربك فكبر»[1]، وسمى السكاكى هذا النوع بالمقلوب المستوى، وهو من أنواع القلب ومن المحسنات البديعية.

وجاء نحو ذلك في الشعر كقول الشاعر:

مودته تدوم لكل هو ... ل وهل كل مودته تدوم

و« يسبحون»: فعل مضارع ذكر لإفادة التجدد والحدوث، أى أن السبح يتجدد ويحدث على الدوام إلى أن يشاء الله.

وذكرت واو الجماعة التى تستعمل فى العقلاء وفى الجمع باعتبار جنس الطوالع كل يوم وليلة، ولأن هذه المخلوقات الكثيرة لما كانت مطيعة لأمر ربها منفذة لتعاليمه لم تترفع لحظة ما عن أداء مهمتها صارت كالعقلاء وعوملت معاملتهم، فهذه الجملة تشبه قوله تعالى للسماوات والأرض « أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»[2]، وقول يوسف عليه السلام الذى أخبرنا الله به:« إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين»[3]، والجملة مستأنفة أو خبر ثان أو حال.

وجاءت الجملة اسمية للدلالة على دوام واستمرار المرور والجرى والسبح كالسابح فى الماء.

(١) سورة المدثر صلى الله عليه وسلم ٣. (٢) سورة فصلت ١١.

(٣) سورة يوسف عليه السلام ٤ وكرر الفعل والفاعل« رأيت» فى الآية الكريمة لطول الكلام ولأن يوسف عليه السلام رآهم أولا غير ساجدين ثم رآهم ثانيا ساجدين فلطول الكلام ولاختلاف الحالتين تكرر الفعل مع فاعله.

ونلاحظ أن فى هذه الآيات التفاتا من التكلم إلى الغيبة، وفائدته العامة شد انتباه القارىء أو السامع، وتجديد نشاطه، وتلوين الكلام حتى لا يمل ولا يسأم، لأن الطبع البشرى يميل إلى التغيير وهو موجود فى لسان العرب الذى نزل به القرآن.

وفائدته الخاصة بيان أن الخالق معروف معلوم لا يجهل آثار قدرته الدالة عليه أحد.

وذكر الخَلْق فى جانب الليل والنهار والشمس والقمر ولم يذكر الجَعْل مثل ماسبق لأن هذه المخلوقات الأربعة ليست ثابتة على حال واحدة كل يوم: فالليل والنهار لازمان لدوران الأرض حول نفسها كل يوم، وحين تدور حول الشمس مرة فى العام- العام الشمسى- تتولد عن ذلك الدوران الفصول الأربعة، ويتأثر الليل والنهار طولا وقصرا وتساويا مع مرور أيام العام بسبب ذلك الدوران، وللشمس مداراتها ومجاريها ففى كل يوم تنتقل من مجرى إلى مجرى إلى أن ينتهى العام الشمسى، أما القمر فله منازله الثمانية والعشرون منزلا ويطرأ عليه التغير بتنقله فى المنازل المختلفة، ويتعرضان للكسوف والخسوف، فكل واحد من هذه المخلوقات الأربعة يعتبر فى كل يوم خلقا جديدا.

وقد أقسم الله بكل منها فى قرآنه الكريم ولفت الأنظار إلى عظمتها وقدرته فيها وصرح بأنها مخلوقات يعتريها التغير والنقصان ولا تستأهل أن تعبد أو يسجد لها، ومن ثم ذكر الله كلمة« خلق» فى هذه الآية ولم

يذكر كلمة« جعل».

فخلّق الله لليل والنهار وهما آيتان من آياته مملوءتان بالأحداث التى يستفاد منها العظات والعبر، ولذا يسميان بالملوين، وخلْقه للشمس والقمر وهما آيتان من آياته نعلم منهما عدد السنين والحساب ونستفيد منهما فى أمور دنيانا وأخرانا ويسميان بالجديدين، وانتظام هذه المخلوقات فى مجيئها فى أوقاتها وأداء وظائفها: دليل عظيم ساطع قاطع على جلال الله وكماله وإتقانه لخلقه وتفضله عليهم، وكيف تكون الحياة لو كان الليل سرمدا أو كان النهار سرمدا إلى يوم القيامة؟.

قال تعالى:« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون»[1] « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب»[2]،« فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمرحسبانا ذلك تقدير العزيز العليم»[3]،« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه

(١) سورة فصلت ٣٧. (٢) سورة الإسراء ١٢.
(٣) سورة الأنعام ٩٦.

ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»[1].

فهذه الأدلة الستة تدمغ كفرة مكة، وتقرع مسامعهم، وتصخ أذانهم، وتدفعهم إلى التأمل فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء ليصلوا من خلال ذلك إلى معرفته حق المعرفة، وعبادته جد العبادة وتنزيهه عن النقائص.

وهذه الأدلة الكونية ليست مقصورة على كفرة مكة، وإنما هى لهم ولكل من على شاكلتهم فى الكفر على مر العصور وكر الدهور، فالكفار ينتشرون فى أرجاء الأرض وهم كثير، والآيات الكونية موجودة أمامهم مرئية لأعينهم يعايشونها ويتقلبون فيها وينعمون بأثارها، والقرآن الكريم المبارك كتاب عالمى خالد يخاطب أهل كل زمان ومكان منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وينبغى أن تعلم- أخى القارىء-: أن هذه الأدلة الستة التى تتحدث عن السماوات والأرض والماء والجبال والليل والنهار والشمس والقمر حديثا محكما صادقا متيقنا تبطل ما قاله الكفرة من سوء على الله وعلى رسوله ووحيه وتدمغهم، وتثبت صدق رسول الله ونزول الوحى عليه من الله، وإلا فمن أين عرف الرسول هذه الحقائق العلمية والأمور الغيبية وكيف تحدى الإنس والجن مجتمعين متظاهرين وهو أمى يحيا فى وسط قوم أميين.

---

(١) سورة القصص ٧١- ٧٣.

وأن القرأن الحكيم ليس كتابا متخصصا فى فن من الفنون أو علم من العلوم: ليس كتاب تاريخ ولا كتاب طبيعة ولا كتاب فلك ولا كتاب طب ولا نحو ذلك من العلوم حتى يتحدث عن فنه بالتفصيل والإسهاب، إنه كتاب إعجاز وهداية ومنهج حياة: إعجاز للمتعنتين المتنطعين المعاندين المعارضين للإسلام إنه يعجزهم ويفحمهم ويخرس ألسنتهم، وهو معجزة لرسول الله دالة على صدقه وإرساله من ربه، وهو هاد إلى الحياة الطاهرة النظيفة حاث على الإستمساك بالمنهج الإلهى وتطبيقه ليسعد الإنسان المخبت المطيع فى الدنيا والآخرة، ويكفيه أنه أشار إلى العلوم السابقة ونحوها من العلوم، وحفز الناس وحثهم على التأمل والتفكر فى الكون، والإغتراف من بحار العلم ليعرفوا الله من خلال ذلك حق المعرفة، ويعمروا الأرض ويحيوا فى سعادة ويكونوا أهلا للخلافة.

وأن الإكتشافات المادية والنظريات العلمية الحديثة التى تدور حول هذه الآيات من جهود الكفرة ومن نتاج أبحاثهم المستمدة من علماء المسلمين وكتبهم، وقد استهل الله الأدلة الستة بقوله:« أولم ير الذين كفروا .... » مما يدل على إعجاز القرآن الكريم.

فلله در ذلك الكتاب، ما أعظم شأنه، وما أجل قدره، وما أرفع ذكره.

ابتلاء الله لعباده

قال تعالى:

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون(٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون(٣٥) ».

ومناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما:

أن الله لما رد بالأدلة الساطعة على مزاعم أهل مكة رد فى هاتين الآيتين على أمنيتهم، فهم حين أعياهم اختلاق المطاعن والمزاعم فى الرسول صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم واضطربت آراؤهم واختلفت أفكارهم وأوصافهم تمنوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصى بعضهم بعضا بالتربص والإنتظار إلى أن يموت فيستريحوا منه ومن دعوته[1] وكانوا يقولون« شاعر نتربص به ريب المنون» كما أخبر الله عنهم فى سورة الطور، وكانوا يحاولون إلى جانب ذلك إصابته بالعين ليستريحوا منه، والعين حق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، قال تعالى:«

(١) هذا مسلك من مسالك الكفرة فى الأمم السابقة قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام:« إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين» سورة المؤمنون ٢٥.

(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى كتاب الطب باب العين حق ج٧ ص١٧١ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى ج٥ ص٣١ وسنن الترمذى كتاب الطب باب ماجاء أن العين حق والغسل لها ج٣ ص٢٦٨ وسنن أبى داود كتاب الطب باب ماجاء فى العين ج٤ ص٩ وموطأ مالك كتاب العين باب الوضوء من العين ص٥٨٣ ومسند أحمد ج١ ص٢٧٤/٢٩٤ وجاء فى أماكن أخرى فى المسند فى الجزء الثانى والثالث والرابع والخامس، والراوى من الصحابة رضى الله عنهم أبو هريرة وابن عباس وسهل بن حنيف وحابس التميمى رضى الله عنهم.

وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون[1].

أو أن الله لما ذكر الأدلة الستة المتضمنة لأصول النعم الدنيوية وعظائمها أتبعها بما يدل على أن البشر ليسوا بخالدين فى الدنيا وليست الدنيا دارا دائمة فعليهم أن يتنبهوا للإبتلاءات والإمتحانات الإلهية فيها ويأخذوا حذرهم ويستغلوا حيواتهم الدنيوية فى الخير لأنها الموصلة إلى الأخرة والوسيلة إلى دار الخلود والنعيم.

ولا تنافى بين المناسبتين ولا تعارض.

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون »:

ويتضح مما سبق فى ذكر المناسبة سبب نزول هذه الآية، وذكر الإمام السيوطى سببا آخر لنزولها فقال:

« وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه، فقال: يارب فمن لأمتى؟ فنزلت« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » الآية[2].

ونكرت كلمة« بشر » لإفادة العموم والشمول والإستغراق أى لبشر ما

---

(١) سورة القلم ٥١.   (٢) انظر لباب النقول للسيوطى ص١٤٧ والرواية المذكورة مرسلة، وابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج من التابعين ومن أقطاب الرواة للروايات الإسرائيلية، وثقه بعض الأئمة وضعفه ووهاه آخرون وتوفى عام ١٥٠هـ وقبل ١٥٩.

وجاءت هذه الكلمة فى القرآن مفردة ومثناة وجمعا كما علمت من قبل.

والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى الخلد: الخلود والبقاء الدائم فى الدنيا، وقد قضى الله بعدم الخلود لأحد ما فى الدنيا لأن الخلود فيها يخالف الحكمة التكوينية والتشريعية كما قال العلامة أبو السعود والألوسى[1].

« أفإن مت فهم الخالدون»:

والهمزة للإستفهام الإنكارى التوبيخى وفيه معنى النفى، فالله ينكر على كفار مكة ويوبخهم لتمنيهم الموت لرسوله على سبيل الشماته به وينفى ألشماتة به صلى الله عليه وسلم.

والفاء الأولى عاطفة للجملة الشرطية على جملة مقدرة، والفاء الثانية واقعة فى جواب الشرط، وتقدير الكلام: أيتمنون موتك شامتين فإن مت فهم الخالدون، وهذا التوجيه أولى من قول بعض العلماء إن الهمزة مقدمة من تأخير، وتقدير الكلام: فإن مت أفهم الخالدون، لما فى هذا الوجه من التكلف والتعسف الذى ينبغى أن ينزه عنه القرآن الكريم.

وبين كلمتى:« الخلد والخالدون» جناس اشتقاق.

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود ج٦ ص٦٦ وروح المعانى للألوسى ج١٧ ص٤٤.

أى ماجعلنا لأى بشر ممن سبقك الخلود والبقاء المستمر فى الدنيا وأنت ستموت حين ينتهى أجلك المحتوم وتنتقل روحك كما مات غيرك وانتقلت روحه، فلا يصح لأهل مكة أن يفرحوا بموتك ويشمتوا به لأن الشماتة لا تكون من عاقل ولأن كل واحد منهم سيموت وتخترمه المنية حين ينتهى أجله، وليس أحد بخالد فى الدنيا فالكل مردهم إلى الله وحسابهم بين يديه، وقد مات الأنبياء قبلك وهم أفضل أممهم وتولى الله دينه بالنصر والحياطة والرعاية، وستموت ويتولى الله دينه وشرعه كذلك فلا يصح لأهل مكة أن يشمتوا لموتك لأن دين الله مستمر ومحفوظ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وفى هذا المعنى نقل عن الإمام الشافعى رحمه الله- قوله:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت . فتلك سبيل لست فيهابأوحد

فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تزود لأخرى مثلها فكأن قد

وقول ذى الإصبع العدوانى[1]:

إذا ما الدهر جر على أناس كلا كله أناخ بآخرينـــــا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

---

(١) روح المعانى للآلوسى ج١٧ ص٤٤.

وقد مات صلى الله عليه وسلم وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى، وأهلك الله صناديد الكفرة وأكابر مجرميهم فى حياته، وهدى من عاش منهم وأولادهم إلى الإسلام الحنيف.

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى بأسانيدهم عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل أبو بكر على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد مات، فقبله وقال: وانبياه، واخليلاه، واصفياه، ثم تلا« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد... » الأية، وقوله تعالى:« إنك ميت وإنهم ميتون »[1].

واختلف العلماء فى الخضر صاحب موسى ومعلمه عليه السلام: فبعضهم يرى أنه مات وهذا هو الظاهر من الأدلة، وبعضهم يرى أنه لا يزال حيا، والآية الكريمة ليس فيها دليل لأحد من الفريقين.

كما اختلفوا فى نبوته: فبعضهم يرى أنه كان نبيا، وبعضهم يرى أنه كان وليا وهو الظاهر، والكلام عن صاحب ومعلم موسي عليه السلام يبسط ويفصل فى تفسير الآيات المتحدثة عنهما فى سورة الكهف وليس فى سورة الأنبياء عليهم السلام.

« كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »:

(١) انظر فتح القدير للشوكانى ج٣ ص٤٠٦ والآية الثانية من سورة الزمر ٣٠.

وهذه الآية الكريمة تؤكد مضمون الاية التى قبلها وتبين ابتلاء الله لعباده ورجوعهم إليه.

والمراد بالنفس: النفس المنفوسة أى المخلوقة، والذوق فى الأصل: اختبار شيء مما يؤكل أو يشرب ومعرفة طعمه باللسان، والمراد بالذوق هنا: الإدراك والإحساس، وفى الكلمة« ذائقة» استعارة: شبه إدراك النفس لآلام الموت ومرارته ومقدماته بالذوق بجامع الإحساس والشعور فى كل، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه واشتقت منه كلمة« ذائقة» على سبيل الإستعارة التصريحية التبعية.

والموت: مفارقة الروح للبدن وخروجها منه وصيرورته جثة هامدة خامدة وعرضة للفناء بعد أن كانت حالة فيه وبها حياته.

والحياة عكس الموت وضده وهى: سريان الروح فى البدن واقترانها به مما يسبب له دفأ وحرارة.

وعرف الإمام الأشعرى الموت تعريفا مختصرا فقال: كيفية وجودية تضاد الحياة اهـ.

وعرفه آخرون بأنه: عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل ...[1].

---

(١) انظر روح المعانى للآلوسى ج١٧ ص٤٥.

والموت والحياة مخلوقان كما صرح الله فى الآية الثانية فى سورة الملك أو سورة تبارك، وقد قضى الله بالموت على كل نفس منفوسة كما جاء فى هذه الآية وفى غيرها مثل قوله تعالى: « كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [١] »، « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »[٢].

أى كل نفس منفوسة ستذوق الموت فى الدنيا وتعالج غصصه وتتجرع كأسه ومرارته وآلامه، وتعرف طعمه وينزل بها وفق عملها وخاتمتها: فالمؤمن الصالح تخرج نفسه بسهولة وتسيل بيسر ونشاط راغبة فى الآخرة كما تسيل قطرة الماء من فم السقاء، أما الكافر فتخرج نفسه بصعوبة ومشقة وتنزع لكراهتها للآخرة كما ينزع الصوف المبتل بالماء من السفود، قال تعالى: « والنازعات غرقا، والناشطات نشطا... »[٣]، فخروج النفس وتذوقها لمرارة الموت وآلامه له نسبه المتفاوتة بتفاوت نسب الأعمال الصالحة والطالحة من العباد، وقد قال صلى الله عليه وسلم وهو يعانى من مقدمات الموت فى مرضه الأخير، ويغشى عليه ثم يفيق، ثم يغشى عليه ثم يفيق: « إن للموت لسكرات »[٤]،

(١) سورة الرحمن ٢٦/٢٧. (٢) سورة القصص ٨٨. (٣) سورة النازعات ١-٢.

(٤) انظر الحديث فى صحيح البخارى كتاب الرقاق باب سكرات الموت ج٨ ص١٣٣ عن عائشة رضى الله عنها.

« اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت »[1].

والله عز وجل له نفس كما جاء فى القرآن الكريم، قال تعالى: « ويحذركم الله نفسه .. »[2]، وجاء فى قول عيسى عليه السلام الذى أخبرنا الله به: « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك »[3]، لكنها غير منفوسة، فالله جل وعلا يخرج من الكلية الموجودة فى الآية.

واختلف العلماء فى المراد بالنفس المذكورة فى الآية: هل المراد بها الذات أو المراد بها النفس الحالة فى الجسم السارية فيه التى بها الحياة؟ وإن كان المراد بها الثانية فهل هى الروح أو غيرها حتى بلغت الأقوال أكثر من مائة قول، وكلها أقوال شغل الفلاسفة والمفكرون أنفسهم بها، وأضاعوا أوقاتهم فيها وفى التنقيب عنها، وليس فى تحقيق هذه المسألة كبير فائدة، ولا كثير عائدة، إذ هى من فضول المسائل وليست من التكاليف الشرعية التى نسأل عنها أمام الله يوم القيامة، والأقوال فيها مبنية على الظن والتخمين ، وقال تعالى: « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[4].

(١) انظر الحديث فى سنن الترمذى أبواب الجنائز باب ماجاء فى التشديد عند الموت ج٢ص٢٢٦ وقال عنه الترمذى: حديث غريب، وسنن ابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء فى ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ج١ص٥١٩ ومسند أحمد ج٦/٦٤/ ٧٠/٧٧ عن عائشة رضى الله عنها، وإذا كانت هذه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من هو فى المنزلة عند ربه فما بالنا وحالنا نحن؟ نسأل الله الكريم الحليم السلامة وحسن الخاتمة.

(٢) سورة آل عمران ٢٨. (٣) سورة المائدة ١١٦. (٤) سورة الإسراء ٨٥.

ونبلوكم بالشر والخير فتنة»:

والفعل المضارع« نبلوكم» مشتق من البلو وهوالإختبار والإمتحان يقال: فلان بلاه الله بخير أو بشر يبلوه بلوا، ويقال: أبلاه الله وابتلاه ابتلاء أى اختبره وامتحنه.

أى نختبركم ونمتحنكم بالشر والخير كالشدة والرخاء، والسقم والصحة، والفقر والغنى، والمعصية والطاعة، والحرام والحلال، والضر والنفع، والعسر واليسر، والضلالة والهدى ....

وسمى اختبار العباد بالبلايا التى يجب فيها الصبر، وبالنعم التى يجب فيها الشكر ابتلاء مع أن الله أعلم بأحوال عباده ولا يخفى عليه شيء قبل وجودهم وبعد وجودهم لأنه فى صورة الإبتلاء والإختبار أى يعاملهم معاملة المختبر لتظهر أحوالهم وتنكشف مواقفهم لغيرهم.

والشر: مازاد ضره على نفعه ورغب عنه الكل، أما الشر الذى لا خير فيه قط فهو النار.

والخير: مازاد نفعه على ضره ورغبه الكل، أما الخير الذى لا شر فيه قط فهو الجنة.

وبين الشر والخير طباق وهو محسن بديعى ولون بلاغى، وقدم الشر على الخير فى الذكر لأن الخطاب للكفار وسياق الآيات أى سابقها ولاحقها معهم وعنهم، نعم فى الآية عموم وشمول لكن الكفار يدخلون فيها دخولا أوليا والمقام مقام ترهيب وتخويف، ولأن الموت شر للعصاة وشر فى نظر

أهل الظاهر.

وكلمة« فتنة» تعرب حالا مؤولة بمشتق أى فاتنين لكم، أو مفعولا لأجله أى للفتنة، أو مفعولا مطلقا باعتبار المعنى كقولك: جلست قعودا، ورجعت القهقرى، ففى الإبتلاء معنى الإفتنان، وفى الإفتنان معنى الإبتلاء ومعنى الفتن فى الأصل: وضع الذهب - أو الفضة- على النار لتمييز خالصه من رديئه رتجريده من الشوائب العالقة به.

فالجملة الكريمة تبين أن الشر بأنواعه وألوانه فتنة فلا يصح من إنسان أن يجزع ويقنط من رحمة الله بسبب شر أصابه فى نفسه أو ولده أو ماله أو قريبه ويضع فى اعتباره وظنه هوانه على الله، وإنما عليه أن يصبر ويراجع نفسه ويحاسبها ويدعو الله بكشف الضر، وليعلم أن ذلك اختبار وامتحان من الله له ليرى أيجزع ويسخط ويتضجر مما حل ونزل به أم يثبت ويصمد ويصبر راضيا بقضاء الله وقدره.

وأن الخير بأنواعه وألوانه فتنة وابتلاء فلا ينبغى لإنسان أن يفرح فرح بطر وأشر بسبب خير منحه الله إياه ويقع فى اعتباره وفى نفسه أنه يستحق ذلك وأنه أهله، وإنما عليه أن يشكر الله ويراجع نفسه ويحاسبها ويدعو الله بدوام الخير وزيادته والإعانة على شكره وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى، وليعلم أن ذلك ابتلاء وإختبار من الله ليرى أيحمده ويشكره أم يجحده وينكره.

فالشر والخير محن ومنح ليميز الله الخبيث من الطيب ويمحص الذين

آمنوا ويمحق الكافرين، قال الله مخبرا عن سليمان عليه السلام بعد أن رأى عرش بلقيس مستقرا عنده: « .. هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم »(١)، وقال الله عن بنى إسرائيل: « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون »(٢)، وقال جل شأنه: « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير »(٣)، « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون »(٤)، « فلما نسوا ما ذكروا به فتحناعليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: « عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »(٦)

---

(١) سورة النمل ٤٠. (٢) سورة الأعراف ١٦٨. (٣)سورة هود عليه السلام ٩- ١١.
(٤) سورة الزمر ٤٩- ٥٠. (٥) سورة الأنعام ٤٤.
(٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزهد باب فى أحاديث متفرقة ج٥ص٨٤٤ وسنن الدارمى كتاب الرقائق باب المؤمن يؤجر فى كل شىء ج٢ ص٣١٨ عن صهيب بن سنان رضى الله عنه ورواه الإمام أحمد مختصرا عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى المسند ج٥ ص٢٤.

وإن القيام بحقوق الصبر أيسر وأسهل من القيام بحقوق الشكر فكم من الناس إبتلاهم الله بالشر فصبروا وثبتوا ونجحوا فى الإبتلاء والإمتحان وهم كثير، وكم من الناس ابتلاهم الله بالخير فضعفوا واسترخت عزائمهم وتهاوت نفوسهم وتمردوا ولم ينجح منهم فى الإختبار إلا القليل، فالمنحة أعظم البلاءين ومن ثم قال عمر الفاروق رضى الله عنه «بلينابالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر»، وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه:« من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله»(١).

« وإلينا ترجعون»: أى إلى الله وحده المصير والمآب للوقوف بين يديه للحساب الذى يعقبه العقاب والثواب، وقدم الجار والمجرور- الظرف - على متعلقه لمراعاة فواصل الآيات وخواتيمها، ولإفادة الحصر، وطريقه تقديم ما حقه التأخير، أى إلى الله وحده المرجع لا إلى غيره لا استقلالا ولا اشتراكا.

وهذه الآية القرآنية الحكيمة بدئت بالحديث عن الموت وختمت بالحديث عن الحياة، وأى حياة؟ إنها الحياة الأخروية السرمدية الأبدية، فبين بدئها وختمها طباق وتقابل.

وهذه الآية مع قلة عدد ألفاظها وحروفها وقصر حجمها جمعت الدنيا

(١)انظر روح المعانى للآلوسى ج١٧ ص٤٧. وورد عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه نحو ماقال عمر بن الخطاب: انظر سنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب ١٤ ج٤ ص٥٧ وقال عنه حديث حسن.

والآخرة: فتذوق الموت المسبوق بالحياة والإبتلاء بالشر والخير يكون فى الدنيا، والرجوع إلى الله - جل فى علاه- للعرض عليه والحساب بين يديه يكون فى الآخرة.

فماأعظم هذه الآية الجامعة، وما أفخم دلالاتها القاطعة الساطعة، وما أكرم معانيها الناصعة.

وللآية المذكورة نظير فى سورة العنكبوت وهو قوله تعالى: « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون» (٥٧): بيد أن جملة« نبلوكم بالشر والخير فتنة» لم تذكر فى آية سورة العنكبوت، وذكرت فيها« ثم» أما آية سورة الأنبياء فذكرت فيها جملة« نبلوكم... » والواو العاطفة، ولا تنافى بين الآيتين لأن- ثم - ذكرت فى آية سورة العنكبوت للدلالة على التراخى وأن الرجوع إلى الله مسبوق بحياة دنيوية فيها إبتلاء واختبار بالشر والخير، وذكرت الواو فى آية سورة الأنبياء لأنها مسبوقة بجملة« نبلوكم... » الدالة على أن الإنسان يحيا مدة عمره فى ابتلاء واختبار، وتنتهى حياته بالرجوع إلى الله، فكل من الآيتين الكريمتين توضح وتبين الأخرى ولا تعارض بينهما ولا إختلاف« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » سورة النساء ٨٢.

استهزاء الكفار برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعنتهم وجزاؤهم

قال الله جل جلاله وعم نواله:

« وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر ءالهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون(٣٦) خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون(٣٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون(٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون(٤٠) ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون(٤١) »:

وعلاقة هذه الآيات بسابقتها: أن الله لما وبخ الكفار على تمنيهم الموت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الشماتة به وبين أن الموت نازل حتما بكل نفس منفوسة وأنه يبتلى بالشر وبالخير ذكر هنا بعض مواقف الكفار التى ابتلى بها رسوله صلى الله عليه وسلم ورد عليهم وهددهم وتوعدهم فقال:« وإذا رآك الذين كفروا ...».

« وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ... » الآية:

ولهذه الآية سبب نزول ذكره الإمام السيوطى وغيره من المفسرين وهو مايأتى:

قال السدى ومقاتل بن سليمان: نزلت هذه الآية فى أبى جهل، مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبى جهل، فقال أبو جهل لأبى سفيان: هذا نبى بنى عبد مناف؟، فقال أبو سفيان: وما تنكرون أن يكون نبيا فى بنى عبد مناف، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما، فقال لأبى جهل: ما أراك تنتهى حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة، وأما أنت يا أبا سفيان فإنما قلت ما قلت حمية، فنزلت هذه الآية[1].

وذكر اسم الموصول وجملة الصلة فى قوله« الذين كفروا » لفضح مشركى مكة وتسجيل الكفر عليهم وبيان أنه علة وسبب الإستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، و« إن» بمعنى: ما أى مايتخذونك إلا هزوا، وفى هذه الجملة حصر طريقه النفى والإستثناء.

وذكر المضارع« يتخذونك» فى موضع الماضى للدلالة على دوام استهزائهم بالرسول كلما رأوه وأبصروه، وأن استهزاءهم به وسخريتهم منه كان شغلهم الشاغل وديدنهم وهجيراهم، ولاستحضار الصورة أمام القارىء والمستمع، و« هزوا » مفعول ثان ليتخذونك، وجاء مصدرا بمعنى اسم المفعول، والإخبار بالمصدر يفيد المبالغة، أى ما يتخذونك إلا مستهزأ به

(١) انظر لباب النقول للسيوطى ص١٤٧ ومفاتيح الغيب للرازى ج٢٢ ص١٧٠ والبحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص٣١٢. وأخرجه ابن أبى حاتم، وفى رواية أن أبا جهل ضحك ساخرا حين أبصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأن أبا سفيان غضب من ضحكه ومن كلامه على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومسخورا منه ومستخفا به، والهزؤ مصدر، يقال: هزأ يهزأ هزؤا فهو هازىء: إذا جعل غيره هدفا وموضعا للعبث والسخرية والتفكه والإزدراء والإذلال والتصغير.

وقد كان هذا المسلك دأب الكفار مع آيات الله ورسله كما قال تعالى مخبرا عنهم: « ... واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا »، « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا »[1].

وجملة « أهذا الذى يذكر آلهتكم » تفسير لجملة « إن يتخذونك إلا هزوا » وهو من تفسير القرآن بالقرآن، واجتمع المفسِّر والمفسَّر فى آية واحدة بلا فاصل، وهو لون من ألوان تفسير القرآن بالقرآن، أو مقول لقول مقدر يفهم من سياق الكلام بمعنى: ما يتخذونك إلا هزوا قائلين أى يقول بعضهم لبعض: أهذا الذى يذكر آلهتكم »، ومثل هذه الجملة قوله تعالى:

« .... والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[2] أى قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا...

والهمزة للإستفهام الإنكارى المتضمن للتعجب والإستهزاء والسخرية برسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاش له عن ذلك، وذكر اسم الإشارة الموضوع فى اللغة ليشار به إلى القريب لمحاولة الكفار تحقير رسول الله وحطهم من قدره وإذلاله.

---

(١) سورة الكهف ١٠٦/٥٦.

(٢) سورة الزمر ٣.

والمقصود من قولهم« يذكر آلهتكم» هو ذكر رسول الله لها بالسوء وبيان واقعها وحقيقتها، وتكريه الناس فى عبادتها، وبيان أنها عمياء بكماء صماء ليس لها أيد تبطش بها، ولا أرجل تمشى عليها، ولا قلوب تفقه بها، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فكيف تعبد ويتقرب بها إلى الله، وتتخذ زلفى وشفعاء عند الله؟.

ومادة الذكر تستعمل فى المدح والذم والخير والشر، وقرينة الحال هى التى توضح المراد عند الإطلاق ولا تحتاج الكلمة إلى تقييد: فإن كان الذاكر صديقا وحبيبا فالذكر ثناء ومدح، وإن كان الذاكر خصما وعدوا فالذكر ذم وقدح، فمثلا إذا قيل: فلان يذكر الله» كان ثناء وتمجيدا، ومنه قوله تعالى:« فاذكرونى أذكركم»[1]، وإذا قيل: فلان يذكر فلانا- وبينهما كراهية- كان ذما وعيبا، ومنه قوله تعالى إخبارا عن قوم إبراهيم عليه السلام: قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم»[2]، أى يذكر الآلهة بالسوء، ومن هذا المعنى قول عنترة بن عمرو بن شداد العبسى[3]:

لا تذكرى مهرى وما أطعمته   فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

فمادة الذكر ذكرت فى الآية الكريمة مرتين: الأولى فى قوله:« يذكر

---

(١) سورة البقرة ١٥٢.

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام ٦٠.

(٣) أى لا تذكرى مهرى بعيب، والمهر: ولد الفرس انظر جامع البيان للطبرى ج١٧ ص٢٥ ومجمع البيان للطبرسى ج٧ ص٧٥.

آلهتكم» أي يذكرها بسوء ويعيبها وينتقصها، الثانية في قوله:« وهم بذكر الرحمن..» أي بذكره بالثناء والتمجيد اللائق به والتوحيد والإيمان بالقرآن. ففي المادة الأولى معنى العيب والذم، وفي المادة الثانية معنى الثناء والتمجيد، وقرينة الحال والمقام هي التي توضح المراد من الذكر.

فمعنى الجملة: يذكر آلهتكم بالسوء، ولم يصرح الكفرة بكلمة السوء وأومأوا إليها تأدبا مع آلهتهم واحتراما لها وإجلالا وإعزازا، ومن غاية جهلهم وفرط كفرهم وتعنتهم أنهم استكثروا على الرسول أن يكشف حقيقة آلهتهم وأن يعريها من الحق والصواب، واستفظعوا جحده لإلهيتها وتهوينها وانتقاصها، وعابوا ما يقوله عنها، وحاولوا تحقيره وتصغيره، ولم يعيبوا على أنفسهم جحدهم لتوحيد الله وإنكارهم لوحيه، إنهم أحق بالملامة وأهلها، وأولى بالهزؤ والسخرية، لا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الواجب عليهم أن يفكروا في أخلاقه وآدابه ونشأته الطاهرة وفي حقية ما جاءه من ربه.

قال الإمام القرطبي: كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن، وهذا غاية الجهل اهـ[1].

وقال العلامة أحمد بن المنير في تعليقه على كشاف الزمخشري: ... سبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان وأساءوا الأدب على الرحمن اهـ[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص٤٣٢٨.
(٢) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ١١

وكلام الكفار على الرسول صلى الله عليه وسلم: « أهذا الذى يذكر آلهتكم » يحمل صفات الكراهية والغيظ والحنق والغضب والسخط والمقت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أكرم الله رسوله فأعزه وأعز دينه وكفاه شرهم فقال له: « إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »[1].

« وهم بذكر الرحمن هم كافرون »:

والواو للحال، والجملة فى محل نصب حال، والمقصود بذكر الرحمن: القرآن الكريم لأن القرآن ذكر وتكون الإضافة لامية، ويجوز أن يراد به التذكر وجريان اسمه على ألسنتهم فهم لا يذكرون الرحمن ولا يلجأون إليه إلا فى وقت الضراء والشدائد والكروب، وإذا كشف عنهم السوء نسوه وكفروا به، ونسبوا الخير إلى آلهتهم، وتكون الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله أى وهم بذكرهم الرحمن.... »، قال الله تعالى: « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »[2]، « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون، هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا

---

(1) سورة الحجر ٩٥ - ٩٧.　　(٢)سورة المجادلة ١٩.

أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق.. »[1].

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون»[2]، وغير ذلك من الآيات المباركات.

وفى ذكر كلمة« الرحمن» أيضا توبيخ للكفرة وتبكيت لهم وتقريع وإخزاء فهو مولى النعم، ورحمته وسعت كل شىء فى الدنيا، ولأنهم كانوا إذا سمعوا لفظ الرحمن جحدوه وأنكروا أن يكون اسما لله وقالوا ما نعرف إلا رحمان اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب متنبىء بنى حنيفة الذى قتله الصحابى المشهور وحشى بن حرب رضى الله عنه، قال تعالى:

« وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا »[3].

و« هم» الثانية تأكيد لفظى للأولى، أو مبتدأ ثان.

ونلاحظ أن الواو فى« يتخذونك» وكلمة« هم» الأولى والثانية وواو الجماعة فى كلمة« كافرون» والضمير المستكن فيها تعود كلها إلى ــ « الذين كفروا » لبيان شناعة كفرهم وفظاعته وتأصله فيهم والتشنيع

(١) سورة يونس عليه السلام ٢٣/٢١.

(٢) سورة الأنعام ٦٤/٦٣.　　(٣) سورة الفرقان ٦٠.

عليهم، كما نلاحظ اسمية الجملة المفيدة للدوام.والإستمرار وكثرة الكفار فى كل زمان.

كما نلاحظ أن أخر الآية مرتبط بأولها: فأولها وصف لأهل مكة بالكفر، وآخرها وصف لهم بالكفر وتسجيله عليهم، وهو ارتباط لفظى ومعنوى ويسمى بتناسب المطلع والمقطع أو برد العجز على الصدر، وهو من محسنات علم البديع.

وبين كلمتى« كفروا وكافرون» جناس اشتقاق.

ولهذه الآية المذكورة نظير فى سورة الفرقان حيث يقول تعالى:

« وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا »[1].

فكفار مكة كانوا يتحينون الفرص للنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقاصه وتشويه شخصيته والتشويش على رسالته ودعوته، فكلما رآه بعضهم وأبصروه استهزأوا به وازدروه واحتقروه، وجعلوه محور تسليتهم ومحل تندرهم وتفكههم، وقالوا كيف يبعث الله رسولا مثل هذا الذى نعرف يتمه وفقره ورعيه للغنم وتربيته؟ وكيف نتبع من يسفه أحلامنا ويعيب أصنامنا ويسىء إلى آلهتنا ويحط منها ويكاد يضلنا عنها

(١) سورة الفرقان ٤١/٤٢.

لولا صبرنا عليها، وهم كافرون بالقرآن وبالوحى، كما أنهم كافرون بالله الرحمن، ناسون تذكره وتذكر آلائه ونعمه.

وهذا التصرف السىء منهم والبغيض كان يرضى به غيرهم ممن على ملتهم ونحلتهم الزائفة الزائغة، وصاروا برضاهم وسرورهم به مشاركين لهم فى الجرم والإثم.

وهذا الموقف المتعنت من الكفرة تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحصل ويتكرر من بعض أهل الفسق والفجور والعصيان تجاه بعض أفاضل العلماء، ودعاة الإصلاح، وأهل الورع والصلاح، نرى ونسمع الفسقة يسخرون منهم ويستهزئون بهم ويتندرون ويتفكهون بذكر سيرتهم بسوء والإفتراء عليهم، بل أحيانا يسلكون مسلك المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهزأون ببعض آيات القرآن الكريم، وببعض أحكام الدين القويم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

« خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »:

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أن العجلة التى يتصف بها الإنسان لون آخر من ألوان الإبتلاء والإختبار، وأن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب كأسلافهم من كفرة الأمم السابقة.

و« خلق» فعل مبنى للمفعول أو لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل ووضوحه، و« من» بيانية، والجار والمجرور فى محل نصب حال أى خلق الإنسان عجلا.

والعجل والعجلة مصدران بمعنى: تقديم الشيء علي وقته وأوانه، وهو أمر مذموم، أما السرعة فهى تقديم الشىء فى أقرب وقته المناسب له، وهو أمر محمود.

واختلف العلماء فى المراد بالإنسان وفى المراد بكلمة عجل:

فقيل إن المراد بالإنسان: الجنس أى جنس الأناسى، والمراد بالعجل: العجلة التى هى ضد البطء، وفيها معنى التسرع والتلهف والإلحاح، وفى الجملة الكريمة مبالغة: أى أن الإنسان من شدة عجلته وتلهفه فى طلب ما يريد ويشتهى وصيرورة ذلك طبعا فيه وغريزة كأنه مخلوق من العجل، فالله جعل العجلة طبيعة من طبائع الإنسان وسجية من سجاياه وصفة من صفاته، ولكثرة صدورها منه صارت كأنها مادة فى تكوينه وكأنه مخلوق منها، كما يقال فى الرجل المعروف بالكرم والسخاء: خلق من كرم، وفى الرجل المشهور بالشجاعة والبسالة: خلق من الشجاعة، وفى الرجل المعروف بالضعف: خلق من ضعف[1]، ومنه قوله تعالى:« الله الذى خلقكم من ضعف»[2].

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى:« ويدع الإنسان بالشر دعاءه

(١) وكان ذلك معروفا مشهورا لدى العرب، يقولون لمن يكثر منه وقوع الشيء ويصير طبعا فيه وسجية: خلق منه، من باب المبالغة فى وصفه بذلك.

(٢) سورة الروم ٥٤.

بالخير وكان الإنسان عجولا»[1]،« ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ..»[2].

وكل الناس متصفون بالعجلة لكن أفرادهم متفاوتون فيها على حسب تفاوتهم فى التدين الحق والنظر والتفكير وتحكيم العقل.

وقيل إن المراد بالعجل: الطين بلغة حمير أى خلق الله الإنسان من طين، ومنه قوله تعالى:« ... وبدأ خلق الإنسان من طين»[3]، ومنه قول شاعر حمير[4]:

والنبع فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

وهذا المعنى- وإن صح- غير مساوق ولا مستساغ فى تفسير الآية المذكورة وليس مرادا.

وقيل إن المراد بالإنسان: آدم عليه السلام: فالله خلق مادته وصوره ثم نفخ فيه من روحه وسرت الروح فى جسمه ولما بلغت فخذيه تعجل وهم أن ينهض ويقوم فنهاه الله وأمره بالتأنى والصبر،

فالآية الكريمة تشير إلى هذه الحالة التى كانت من أبينا آدم عليه السلام، وتكون أل فى« الإنسان» للعهد.

وهذا المعنى لا يتعارض مع المعنى السابق لأن الجملة تحتملهما معا

(١) سورة الإسراء ١١. (٢) سورة يونس عليه السلام ١١. (٣) سورة السجدة ٧

(٤) انظر البيت المذكور في البحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص٣١٣ ومجمع البيان للطبرسى ج٧ ص٧٦ وروح المعانى للألوسى ج١٧ ص٤٩.

فأولاد آدم عليه السلام ورثوا هذه الصفة من أبيهم و« من أشبه أباه فما ظلم»[1]، وتشير الجملة الكريمة القرآنية إلى علم الوراثة.

وقيل إن آدم عليه السلام لما خلقه الله فى آخر ساعة من نهار يوم الجمعة ونفخت فيه الروح وسارت فى بعض أجزاء هيكله طلب من ربه أن يتم خلقه، ويتم سريان الروح فى كل جسمه قبل مغيب الشمس وغروبها، وكان آدم متعجلا، فالجملة القرآنية الكريمة تشير وتومىء إلى هذا، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي- وقبض أصابعه يقللها- فسأل الله خيرا إلا أعطاه إياه» قال أبو سلمة- الراوى عن أبى هريرة-: فقال عبد الله بن سلام رضى الله عنه: قد عرفت تلك الساعة، هى آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهى التى خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: خلق «الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون»[2].

وقيل إن الجملة تشير إلى سرعة خلقه في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة وأنه لم يمر بالأطوار التى مر بها بنوه الذين يخلق كل واحد منهم من نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاما، ثم تكسى

---

(١) مثل من الأمثال العربية انظر مجمع الأمثال للميدانى ج٢ ص٣٠٠.

(٢) انظر جامع البيان للطبرى ج١٧ ص٢٨ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٧٩

العظام لحما، ثم يعطيه الله السمات والصفات الأخرى التى يكون بها خلقا آخر، فالله أنشأ آدم إنشاء، وخلقه بسرعة على غير ترتيب وأطوار خلق بنيه ، والجملة الكريمة تشير إلى هذه الآية العجيبة فى خلقه عليه السلام.

وقيل إن المراد بالإنسان كفار مكة، فهم كانوا يستعجلون العذاب ويدعون به على أنفسهم متبعين منهج كفار الأمم السابقة الغابرة فكانوا يدعون ويقولون ماأخبرنا الله به:« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»[1]

ومما يقوي هذا المعنى الثالث ويزكيه بقية الآية وهى جملة:« سأوريكم آياتى فلا تستعجلون»، وتكون أل فى« الإنسان» للعهد.

فالإنسان يتعجل ما يريد بل يطلب الشر كما يطلب الخير من شدة تعجله وتلهفه وتسرعه، وربما يتعجل شيئا فيه ضرره أو حتفه وهو لا يدرى، ومن فضل الله ورحمته وكرمه ورأفته أنه يستجيب له فى دعائه بالخير ولا يستجيب له فى دعائه بالشر.

وقد أمر الله الإنسان بالصبر ووعده بالإثابة عليه وأعطاه العقل الذى به يميز ويفكر ويكبح جماح نفسه ويقلل من سورتها، وبه يتحكم فى هواه وغرائزه ويتسامى بها، ويقمع عجلته كما يقمع شهوته ويتحكم فيها، فليس فى منع العجلة أو التخفيف منها تكليف بما لا يطاق كما قد يتوهم

(١) سورة الأنفال ٣٢.

فالمؤمن الصادق الإيمان يتمسك بدينه ويهتدى به ويحكم عقله ويصبر ويصطبر، ويقلل من عجلته، ويتمهل ويتأنى فيما يريد مؤمنا بقضاء الله وقدره، موقنا بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»(١)، « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده ... »(٢).

أما الكافر فقليل الصبر كثير العجلة، يندفع إلى ما يريد،متكالب على الدنيا، جاعلها أكبر همه ومبلغ علمه، واضعها فى قلبه لا فى يده، مفرط فى حبها والتعلق بها، ومن ثم تنتشر فيهم الجرائم وترتفع نسبة الإنتحار بين الكفار فى الدول المتحضرة المترفة لضعف صبرهم وضيق صدرهم وشدة عجلتهم وتكالبهم وتبرمهم وسخطهم بالحياة وضجرهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

قال تعالى:« ... وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون»(٣).

« سأوريكم آياتى فلا تستعجلون»:

والسين فى قوله« سأوريكم» حرف يفيد التسويف لكنه غير سوف، فالسين تفيد قرب وقوع وتحقيق مضمون الجملة، أما« سوف» فتفيد

---

(١) سورة فاطر ٢.

(٢) سورة يونس عليه السلام ١٠٧. (٣) سورة البقرة ٢١٦.

وقوعه وتحققه فى المستقبل البعيد. والخطاب في الجملة الكريمة لكفار مكة، وذكر السين فى قوله- سأوريكم- دل على قرب إراءتهم ما أوعدهم الله وإصابتهم به.

ونجد فى الفعل المذكور واوا تكتب فى رسم الكلمة فى المصحف ولا تنطق، ونجد لهذا الفعل نظائر فى القرآن الكريم: نجد فيه كلمات معروفة فيها أحرف تكتب ولا تنطق، وأفعالا معتلة حذفت منها أحرف العلة بدون دخول جازم، وغير ذلك مما يختص برسم القرآن الكريم الذى كتبه الصحابة الكرام- رضى الله عنهم- بغاية ونهاية التحرى والتثبت والإحكام مما يدل على ذكائهم الخارق وحرصهم الشديد الفائق على خدمة كتاب ربهم ودستور دينهم.

ولهذا الرسم إيحاءاته الدقيقة وإشاراته الرقيقة الدالة على معان عظيمة واستنباطات فخيمة.

فهذه الواو زيدت فى رسم الكلمة وتكتب ولا تنطق للدلالة على زيادة العذاب وقوته، وفظاعته وشدته، ذلك العذاب الذى توعد الله به الكفرة، وسيريهم إياه عما قريب، أى دلت زيادتها على تطابق الرسم للمعنى.

والمراد بآيات الله: الآثار الدالة على قدرته، ويدخل فيها تعذيب الكفار بألوان العذاب النفسى والبدنى كظهور الإسلام الذى يغضبهم ويغيظهم ويحزنهم، وانتصار المسلمين، وأخذ الكفار بالسنين والجدب

والقحط حتى أكلوا الجيف وأوراق الشجر والعلهز، وكانوا من شدة جوعهم يرون أمامهم خيالات واهتزازات كأنها أدخنة وما هى بها، وهزيمتهم المريرة فى غزوة بدر الكبرى وغيرها من الغزوات والسرايا التى قتل فيها صناديدهم وأكابرهم، وما ترتب عليها من ترمل النساء وتيتم الأطفال وتبديد المال وغير ذلك مما أصيبوا به فى الدنيا.

أما تعذيبهم الأخروى فهو عظيم أليم مهين لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه، وقد أوعدهم الله - القوى الجبار الشديد الإنتقام القهار - بجهنم وسيخلدون فيها أبدا.

وكل هذه المذكورات من آيات الله ونقماته منهم.

« فلا تستعجلون»: والإستعجال: طلب الشيء قبل زمنه الذى يجب أن يكون فيه دون غيره من الأزمنة، فالسين والتاء للطلب، وتفيدان المبالغة فى العجلة وشدة التسرع، وفى الجملة نهى للكفرة عن استعجال العذاب، فالآيات نازلة بهم لا محالة ولن يملكوا دفعها ولا الفرار منها ولا تغييرها وتحويلها، وقد كانوا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم كأسلافهم فى الكفر مع رسلهم يستعجلون العذاب استهزاء وازدراء، وسخرية وتحديا، ظانين أنه لا يقع ولا يكون، فخاب ظنهم وضل سعيهم فى الدنيا وهزمهم المسلمون الأعزاء بدينهم هزائم ساحقة متلاحقة، ونصر الله دينه، وأعز جنده، أما حالهم فى الآخرة فإنهم يعذبون العذاب الأليم الشديد ويقال لهم:« ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون»(١)، قال تعالى:

(١) سورة الذاريات ١٤.

«ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون»[1].

ويرى الحافظ ابن كثير رحمه الله وأحسن مثواه أن الآية الكريمة يجوز أن تعنى المسلمين فقال:

والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم وقع فى النفوس سرعة الإنتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالي: خلق الإنسان من عجل ...اهـ[2].

ويكون الخطاب فى الآية- على هذا القول وهذه المناسبة- للمسلمين أصحاب رسول الله، أى سأريكم أيها المسلمون آياتى وانتقامى من أعدائى وأعدائكم، وعظيم اقتدارى على من عصانى فلا تتعجلوا الأمر قبل وقته وأوانه المعين.

ومما يؤيد هذا المعنى المذكور قوله تعالى:« ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا»[3].

---

(١) سورة العنكبوت ٥٣/٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٧٩.

(٣) سورة مريم ٨٣/٨٤.

ولا مانع من اندراج المعانى المذكورة كلها تحت عموم الآية الكريمة الحكيمة إذ الآية شاملة عامة حمالة للمعانى السابقة كلها، ومن يفسرها بواحد من المعانى السالفة مكتفيا به فقد فسر العام ببعض أفراده، بيد أن بعض المعانى أولى فى الترتيب بالتقديم من بعض.

وجملة« خلق الإنسان من عجل» مثل من أمثال القرآن المرسلة، وقد عرفت فيما مضى معنى المثل المرسل[1]، وفى الآية الكريمة رد العجز على الصدر أو تناسب المطلع مع المقطع حيث قال الله فى أول الآية« خلق الإنسان من عجل» وقال فى آخرها« فلا تستعجلون»، وبين كلمتي: «عجل وتستعجلون» جناس اشتقاق، وبين كلمتى:« عجل ولا تستعجلون» جناس سلب، فتأمل ما فى القرآن العظيم من معان بيانية ووجوه بلاغية، وكن على ذكر منها، وتذوق لها، لتدرك بيقين، عظمة القرآن المبين، وإعجازه للإنس والجن ولو مجتمعين.

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين »:

جادت هذه الآية هنا وفى سورة يونس عليه السلام وفى سورة الملك أو تبارك[2]، والواو عاطفة، والواو فى كلمة« يقولون» تعود إلى كفار مكة، و« متى» اسم استفهام يسأل به عن الزمان وهو خبر مقدم، وغرض

(١) فى تفسير قوله تعالى: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

(٢) سورة يونس عليه السلام ٤٨ وسورة الملك ٢٥ وجاءت فى سورة يس وغيرها من السور.

الكفار من الإستفهام والسؤال الإستبعاد والإستحالة إلى جانب الإستهزاء السخرية والتهكم، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

فالكفار يوجهون سؤالا إلى أفاضل المسلمين وأماجدهم قائلين متى هذا الوعد بالنصر لكم ولدينكم أو بالعذاب لنا أو بالبعث ؟ إن كنتم صادقين فى قولكم وإخباركم فأجيبونا ، قال تعالى:« قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا مايوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا »[1].

ومع أن غرض الكفار وهدفهم من الإستفهام: الإستبعاد والإستحالة مع الإستهزاء أتوا فى سؤالهم بإسم الإشارة الموضوع فى اللغة ليشار به إلى القريب وفق عقيدة المسلمين فى وعد الله سخرية من الكفرة واستهزاء بوعده تعالى.

وقد نصر الله دينه وأعلى قدره فى أول غزوة وهى غزوة بدر الكبرى التي قتل فيها نحو سبعين من صناديد الكفرة وأكابر مجرميهم، وأسر منهم نحو هذا العدد ، ووقف رسول الله على قتلاهم بعد دفنهم فى القليب ببدر، وناداهم بأسمائهم: يافلان بن فلان، يافلان بن فلان ....« قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا »[2]، وكانت غزوة بدر

(١) سورة مريم ٧٥.

(٢) جزء آية من سورة الأعراف ٤٤.

فاتحة خير للإسلام والمسلمين ودرسا عصيبا قاسيا عسيرا على الكافرين، ثم تلتها الغزوات والمعارك والإنتصارات للإسلام وللمسلمين، ونسأل الله دوامها.

« لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون »:

وفى هذه الآية الكريمة وما بعدها رد من الله على الكفرة وتهديد ووعيد لهم وكشف وبيان لحالهم السيئة وعاقبتهم الوخيمة فى جهنم.

و« لو » شرطية غير جازمة، وذكر اسم الموصول وجملة الصلة لتسجيل الكفر والتشنيع عليهم وفضحهم، وذكر الفعل المضارع« يعلم» فى موضع الماضى لإفادة استمرار عدم العلم وعدم التصور، ولتظل الآية شاملة لكفار كل زمان ومكان.

و« حين» مفعول به ل« يعلم» أى لو يعلم الذين كفروا الوقت الذى لا يكفون .....، ويجوزأن يكون ظرفا ويكون المفعول مقدرا والتقدير: لو يعلم الذين كفروا أمرهم أو حالهم حين لا يكفون ....، ولم يذكر المفعول ليتسع التصور والتخيل والإيحاء بهول الموقف وفظاعته وشدة الرهبة والفزع والخوف والهلع.

وذكرت الوجوه والظهور لأن الوجه أشرف أجزاء الجسد، وهو مرآة الرأس وواجهته، وفيه مجمع الحواس، ولأن النار إذا غشيت هذا الجزء وهو أعلى الجسد وأشرفه فغشيانها لما دونه من باب أولى.

ولأن فى الظهر العمود الفقرى الذى يمسك الجسد ويعد أسطوانته وعماده وأهم وأقوى شىء فيه.

فالآية الكريمة ذكرت أهم جزء فى كل كافر من الأمام، وأهم جزء فيه من الخلف مما يفيد غشيان النار وتغطيتها لكل أجزائه، وصدق الله فى قوله: « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين »[1]، « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل »[2]، « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون »[3]، « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوهم النار »[4]، وغير ذلك من الآيات.

وجملة « لا يكفون » تفيد أن النار تطلبهم وتندلع وتشتعل بهم وهم فى تألم مستمر وتعذيب دائم لا يستطيعون كفها ودفعها ولا التخفيف منها.

وجملة « ولا هم ينصرون » اسمية تفيد دوام عدم نصرتهم، أى ولا هم ينصرون ويتغلبون على النار بأنفسهم ولا بغيرهم وصدق الله فى قوله إخبارا عن حال الكفرة: « من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا »[5]، « ذلك بأن الله مولي الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم »[6].

---

(١) سورة الأعراف ٤١. (٢) سورة الزمر ١٦. (٣) سورة العنكبوت ٥٥.
(٤) سورة ابراهيم عليه السلام ٥٠. (٥) سورة النساء ١٢٣.
(٦) سورة محمد صلى الله عليه وسلم أو القتال ١١.

ولم يذكر جواب« لو » للإيجاز ومراعاة فواصل الآيات وخواتيمها ولتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ولاتساع مجال التفكر والتأمل فى القرآن الحكيم، أى: لو يعلم الذين كفروا .... ما قالوا متى هذا الوعد، أو: لو يعلم الذين كفروا ... ما استهزأوا برسول الله ولا كفروا به، ونحو ذلك من الأجوبة التى يعطى عدم ذكرها إيحاء بمعان كثيرة، قال العلامة أبو حيان: وجواب« لو » محذوف لأنه أبلغ فى الوعيد وأهيب ١هـ[1].

ومثل هذه الآية الكريمة فى عدم ذكر الجواب والتصريح به قوله تعالى:« ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب »[2]،« ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ... »[3]، ونحوهما من الآيات.

فالآية الكريمة تهدد الكفار وتتوعدهم وتبين نهايتهم الأليمة، وعاقبتهم السوآى، وترميهم بالجهل والإغترار، وتصرح بأن جهلهم بالعذاب وعدم معرفتهم لحاله وحقيقته هونه عندهم وجعلهم يقولون ما يقولون ويفترون ما يفترون.

« بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون » :

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص٣١٣.

(٢)سورة البقرة ١٦٥.

(٣) سورة الأنفال ٥٠.

و« بل» للإضراب الإنتقالى، وفاعل تأتى ضمير مستتر يعود على مايفهم من الآيات أي الساعة، فلفظ« الوعد» ولفظ« حين» يدلان عليها، و« بغتة» حال من الفاعل أو المفعول أى تأتيهم الساعة باغتة مفاجئة لهم، أو مبغوتين مفاجئين، والبغتة المفاجأة بحدوث شيء غير مرتقب.

ومعنى« تبهتهم»: تحيرهم وتذهلهم، يقال: بهت فلان فلانا: إذا واجهه بشيء يحيره ويعجز عن دفعه، ويقال: فلان مبهوت أي متحير، وهى كلمة تقال فى المغلوب فى المحاجة والمحاورة، ومنه قوله تعالى فى شأن الرجل الذى حاج إبراهيم في ربه:« ... فبهت الذى كفر ...»[1]، والفعل من بابى: قرب وفرح.

أى أن الساعة تأتى الناس فجأة فتبهت الكفار وتذهلهم وتحيرهم ولا يمكنهم ردها ومنع وقوعها وإتيانها، ولا يمكن أن ننظرهم ونمهلهم للتوبة وللعمل الصالح، فهم لا يمهلون منا ولا من غيرنا، قال تعالى:« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون»[2].

ويجوز أن يكون فاعل تأتى ضميرا مستترا عائدا على النار، أى تأتيهم النار فجأة فتحيرهم وتذهلهم وتذعرهم وتشخص أبصارهم

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

(٢) سورة يس ٤٨/ ٥٠.

فيستسلمون لها حائرين مذهولين لا يدرون ما يصنعون، ويعذبون فيها عذابا شديدا دائما أبديا بلا إمهال.

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »:

واللام فى« لقد » تدل على القسم، وأقسم الله لزيادة تأكيد المعنى وتحقيق مضمون الآية، و« قد » حرف يفيد التحقيق لدخوله على الفعل الماضى كما عرفت سابقا، وبناء الفعل« استهزىء » للمفعول أو لما لم يسم فاعله للدلالة على كثرة المستهزئين برسل الله السابقين عليهم السلام، ونكرت كلمة« رسل » وجمعت للدلالة على التفخيم والتعظيم والتكثير، وذكر« من » فى قوله« من قبلك » يفيد أن الإستهزاء بالرسل بدأ منذ زمن بعيد سحيق، فذكر« من » يفيد التوغل فى الزمن والعمق البعيد فى أعماق التاريخ وأغواره كما علمت من قبل.

ومعنى:« حاق »: حل ونزل وأحدق وأحاط، فهى كلمة تفيد حصار المكروه لهم وإحاطته بهم وشموله وملازمته.

وقدم الجار والمجرور« بالذين » على الفاعل للمبادرة والمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم وأخذ جزائهم العاجل.

والضمير فى قوله« منهم » يعود على« رسل »، ولعل الضمير فى قوله« به » جاء مفردا ولم يجىء جمعا للدلالة على أن كل المستهزئين بأى رسول من الرسل السابقين فى أى زمان حاق بهم العذاب وهو جزاء

استهزائهم به، ولو جاء جمعا فلربما يظن ظان ويتوهم متوهم أن العذاب حاق بالمستهزئين بسبب استهزائهم بهم كلهم[1]

قال تعالى: « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين »[2]، « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »[3].

وفى الآية الحكيمة رد العجز على الصدر أو تناسب المطلع مع المقطع: حيث جاءت فى أول الآية كلمة « استهزىء » ثم ختمت الآية بكلمة : « يستهزئون »، وبين الكلمتين أيضا جناس اشتقاق، وهذا من المحسنات البديعية كما مر بك غير مرة.

فالآية الكريمة أنزلها الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه، وترويحا وترفيها، وكفكفة لحزنه وتخفيفا لهمه ولوعته، بسبب عدم إيمان قومه به، ومحاربتهم له واستهزائهم به، لقد كان يبلغهم دعوة ربه ورسالته، ويدعوهم إلى الله بصدق وإخلاص المرة بعد المرة، فيجد منهم الصدود والإعراض والنفور، فيرهق نفسه فى التبليغ، ويقع فى نفسه أن العيب فيه، حتى كاد يهلك نفسه، وكادت نفسه تذهب عليهم حسرات،

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج٦ ص٦٨ وروح المعانى للآلوسى ج١٧ ص٥١.

(٢) سورة الأنعام ٣٤. (٣) سورة يوسف عليه السلام ١١٠.

فنهاه الله عن ذلك، وبين له أن لا عيب فيه ولا فى رسالته ولا فى طريقة تبليغه، وإنما العيب فيهم هم، وأن عليه البلاغ فحسب، فقال له: « ما على الرسول إلا البلاغ »[١]، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[٢]، « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »[٣]، « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »[٤]، « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين »[٥]، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »[٦]، « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »[٧] وغير ذلك من الآيات.

وأمره الله بالصبر والإقتداد والتأسى بالرسل السابقين فليس هو بدعا من الرسل ولا مخالفا لهم، وإنما شأنه شأن غيره منهم، وسيواجه من أعدائه ما واجهه غيره من الرسل من أعدائهم، فعليه أن يصبر، وسيتحقق له النصر حتما كما تحقق لغيره من الرسل، وسيحيق العذاب بأعدائه وخصومه كما حاق بأعداء وخصوم الرسل السابقين عليهم السلام، قال تعالى بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولا: « ... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »[٨]، « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب »(٩)، وغير ذلك من الآيات البينات التى يطول حصرها ويكثر ذكرها.

(١) سورة المائدة ٩٩. (٢) سورة الكهف ٦. (٣) سورة الشعراء ٣.
(٤) سورة فاطر ٨. (٥) سورة النحل ٣٧. (٦) سورة القصص ٥٦.
(٧) سورة الأنعام ٣٥. (٨) سورة الأنعام ٩٠. (٩) سورة ص ١٧.

هذا، وفى الآية الكريمة تسلية كذلك لأفاضل العلماء وأماجدهم، ودعاة الإصلاح وأهل الورع والتقوى، وترويح عنهم بسبب ما يلاقونه من بعض الفساق والعصاة والسوقة وقالة السوء من السخرية والتهكم، والإستهزاء والإزدراء، وغير ذلك مما قد يعكر صفوهم ويعوق مسيرتهم ومنهجهم، ويشوه سيرتهم، فالآية الكريمة تسليهم وترفه عنهم، وتبين أن طريق الخير ليس سهلا مفروشا بالورود والرياحين، وإنما فيه أشواك وعقبات وآفات، فلا بد أن يتحملوا ويصبروا كما تحمل وصبر غيرهم من سادات البشرية أصحاب الرسالات الإلهية، ولا بد أن يقتدوا ويتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، والله ناصرهم ومثيبهم وهو واسع عليم ذو فضل عظيم، وخاذل أعدائهم لأنه وعد بذلك وأكد وعده، ووعده لا يتخلف فقال: « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون »(١)، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(٢).

وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط »(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على

(١) سورة الصافات ١٧١/١٧٣.   (٢) سورة غافر ٥١.

(٣) انظر الحديث فى سنن الترمذى أبواب الزهد باب فى الصبر على البلاء ج٤ ص٢٧ وقال عنه الترمذى حديث حسن غريب من هذا الوجه، وسنن ابن ماجه كتاب الفتن باب الصبر على البلاء ص١٣٣٨ ومسند أحمد ج٥/٤٢٧/٤٢٩. وهو مروى عن أنس بن مالك ومحمود بن لبيد رضى الله عنهما.

أذاهـم أعظـم أجـرا مـن المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم [١].

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأرضاه قال: قلت: يارسول الله أى الناس أشد بلاء؟، قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة»[٢].

.... إلى غير ذلك من الروايات الواردة فى هذا الباب، وهى كثيرة مستفيضة، فهنيئا للعاملين بالقرآن الكريم والسنة الشريفة المطهرة، المحتسبين الأجر عند الله، الصابرين على لأواء الحياة ومشقاتها ومكابدها وعلى ما أصابهم، الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

نسأل الله العلى الحسيب القريب المجيب أن نكون منهم.

---

(١) انظر الحديث فى سنن ابن ماجه فى الموضع السابق، وهو مروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) انظر الحديث فى سنن الترمذى أبواب الزهد باب فى الصبر على البلاء ج٤ ص٢٨ وقال الترمذى عنه حديث حسن صحيح، وسنن ابن ماجه كتاب الفتن باب الصبر على البلاء ص١٣٣٤، وسنن الدارمى كتاب الرقائق باب فى أشد الناس بلاء ج٢ ص٣٢٠، ومسند أحمد ج١/١٧٢/١٧٤/١٨٠/١٨٥.